سمير عبده

السريان

المسيحيون - المسلمون

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

منشورات دار علاء الدين

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

* سمير عبده

* السريان: المسيحيون ــ المسلمون

* جميع الحقوق محفوظة

* الطبعة الأولى : آب ٢٠٠٠

* تنضيد وتنفيذ وتوزيع

دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة

دمشق ــ سوريا ــ ص.ب: ٣٠٥٦٨

هاتف: ٥٦١٧٠٧١

فاكس: ٥٦١٣٢٤١

---

* جميع الأفكار والآراء الواردة في الكتاب تعبر عن وجهة نظر المؤلف.

* في حال أخذ أية مادة من الكتاب يرجى التنويه إلى المصدر.

http://www.al-maktabeh.com

مقدمة

تقوم فكرة هذا الكتاب على أن سكان سوريا في بدء المسيحية كان معظمهم من الآراميين السريان حيث انتشرت المسيحية بينهم، ثم عند دخول الجيوش العربية الإسلامية تحول قسم كبير من هؤلاء السريان إلى الإسلام فشكلوا نواة الأمة السورية بشقيها المسلم والمسيحي وهي الأرضية التي قامت عليها عروبة هذه المنطقة في الزمن اللاحق.

وفي الوقت الحاضر لا يمكن حصر كلمة سريان في مفهوم واحد، ولكن السريان الأرثوذكس يجمعهم أربعة مفاهيم: عنصرية ولغوية وطقسية ومذهبية، وقد تنطوي هذه التعاريف على فئة من جانب أو آخر لا تنطوي عليها في سائر الجوانب، وهذا ما بيناه من خلال صفحات الكتاب، وتضم هذه الفئات المسيحي والمسلم، حيث الأول يمارس لغته السريانية في الكنائس – على الأغلب – فيما الثاني يتكلم بها في محيطه بعدد من القرى السورية. ولكن هؤلاء جميعاً يتكلمون الكثير من الكلمات السريانية في حياتهم اليومية، ويتراوح اتساع هذه الكلمات ما يقارب الخمسين بالمئة من اللغة المحكية في سوريا، وتبعاً لهذا المكان أو ذاك. كما لايمكن إغفال العدد الكبير من أسماء القرى والمدن التي تحمل الاسم السرياني في هذه البلاد.

إن مساهمة السريان في بناء الحضارة العربية مما لا يمكن إنكاره أو التقليل من شأنه، فقد كان أثرهم مهم في نشر الكتابة العربية، المأخوذة عن السريانية، الكتابة التي تولد منها قلمنا الذي نكتب به في الوقت الحاضر. ويندر أن لا يرد اسم السريان في الكتب التراثية الإسلامية، وبتعظيم لشأنهم ومدى تغلغل لغتهم في ألسنتهم. كما أن مساهمتهم في عصري بني أمية والعباسيين مما لا تتسع له مجلدات، وقد ذكرنا البعض من هذا في سياق الكتاب، ثم كانت مساهمة المسيحيين العرب في بعث النهضة العربية الحديثة التي نتمتع بثمارها في الوقت الحالي.

كانت بداية كتابة تاريخ السريان وسوريا في الكتاب الأول الذي صدر لنا عام ١٩٩٧، بعنوان (السريان: قديماً وحديثاً) عن المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان، وقد تناول بداية الطائفة السريانية إلى وقتنا الحاضر، والكتاب الثاني (السوريون والحضارة السريانية) عام ١٩٩٨ وبه استعراض لما بقي من الحضارة السريانية في المنطقة. والثالث (السريانية – العربية: الجـذور والامتداد) وبه نعطي الهوية الثقافية السريانية لسوريا مع إيراد نماذج لمئات من الكلمات المتداولة في حياتنا اليومية التي أصلها سرياني، ويندر أن يعرفها إلا الخبير بها. وأخيراً هذا الكتاب الـذي بين أيدي القارئ، وهو أقرب إلى دراسة السريان من عدة مفاهيم، أهمها الجامع بين المسـيحيين والمسلمين في جذر واحد يبين أصل سكان سوريا السريان.

ثمة عناوين لفصول متشابهة في هذه الكتب الأربعة، ولكن كل عنوان أعطى مادته لتخدم العنوان الأكبر للكتاب، مع إيراد مصادر جديدة، ندر أن كررناها في هذه الكتب، بحيـث أن مراجع هذه الكتب الأربعة فاقت أربعمئة مرجع، وهي بشكل أو آخر تمثل أهم المراجع الـتي تناولت تاريخ السريان.

ومع كل الجهد الذي بذلناه نشعر أن عملنا لا يمكن أن يصل إلى ما نطمح إليه، فـهناك مصادر عربية وأجنبية كثيرة لم نستطع الوصول إليها، حيث هي متناثرة في المكتبات والمتاحف العالمية.

كما أن لائحة المخطوطات السريانية لكانت أوفر عدداً لو لم يلجأ بعـض المسـؤولين العابثين إلى إتلاف معظمها، وكمثال على ذلك ما كان محفوظاً في مكتبة صيدنايا [1].

ونحن نشدد على عامل اللغة السريانية في بقاء هذه الحضارة باقية، وهي وسيلة يعبر بهـا المرء عن ثقافته وأفكاره واحساساته، ولا ينسب إليها إلا إذا جَبَله التاريخ بها، وهو جبلها بدوره فصار واحداً معها في دمه وحياته وروحه، من خَلف إلى سَلَف، ومن المهد إلى اللحد.

وإذا كان السريان هم من عنينا بهم من خلال عدة دلائل، فإن (الروم الملكيين عبّروا عن أنفسهم وعن ثقافتهم باللغة اليونانية، وكان دمهم سريانياً، وكذلك المصريون بقوا فراعنـة في

[1] – مرجعنا هو مقال الاكسرخوس جوزف نصر الله: الليتورجيا (أو الطقس) في البطريركيات الملكية (مـن ٩٦٩ إلى ١٣٠٠) المنشور في مجلة المسرة – حريصا السنة ٧٦ / ١٩٩٠ تموز – ك١ ص٤٦٠. ويقول الكـاتب في ذلـك: بشأن هذا العمل البربري، راجع رواية شاهد عيان أوردها حبيب الزيات في (خزائن الكتب في دمشق وضواحيـها) – (في أربعة أجزاء: دمشق وصيدنايا ومعلولا ويبرود) ١٩٠٢ ص١١٧ – ١١٨، (خبايا الزوايا في تاريخ صيدنايـا) ١٩٣٢ ص٢٥٨ – ٢٦٠، وبشأن عمل مماثل اقترفه، على ما يزعم مطران يبرود غريغوريـوس عطـا (١٨١٥ – ١٨٩٩) راجع مقالنا: مخطوطات معلولا، ظهر في مجلة *B.E.O* ١٩٤٢- ١٩٤٣ المجلـد٩ ص١٠٧-١٠٨ مـع المراجع، والجدير بالذكر أن المصدر الذي نقلنا عنه بتمام نصه ليس بسرياني بل هو من الاباء الملكيين المشهورين.

روحهم ودمهم، وتبنوا اللغة اليونانية مثلنا وعاشوا ثقافتها وأبدعوا في استعمالها. فبالنسبة إلينا، وإلى كنيستنا، تسميتنا (يونانا) فيها شيء من الخطأ والانحراف عن الصواب والتأويل الزائف، لأننا لم نكن قط أمة يونانية)[1] .

ونحن حين استعملنا تعبير الكنيسة السريانية أو السورية وليس المشرقية، قصدنا أن كلمة شرقي لها مدلول تاريخي وجغرافي يشير إلى واقع مبهم، واسع الحدود، غير معروف الهوية، إلا إذا حدّد بوضوح. فكلمة (شرقي) هي كلمة كثيفة الإبهام في حد ذاتها، تعني الشعوب والثقافات القائمة في حدود الشرق، من شاطئ البوسفور إلى الشرق الأدنى، مرورا بالصين والهند واليابان. على هذا فإن تعبير السريان والسريانية والسورية يعطي مدلولا واضحا لرقعة جغرافية لعبت الحضارات الإنسانية بها دورا مهما في بناء حضارة الإنسان.

وأخيراً فإن العبارات المتداخلة في نص الكتاب ليست متماثلة وإنما تعبر عن أفكار حول نقطة واحدة وتكون في موضع أوفى منها في موضع آخر، وعلى ذلك فهي تفيد في توضيح بعضها.

سمير عبده

ص.ب ٩١٤ دمشق

١ - مجلة المسرة – حريصا السنة ٧٥ / ١٩٨٩ آب – ك١ ص٢٦٢، المطران يوسف ريّا.

http://www.al-maktabeh.com

تمهيد

يمتد الحديث عن عناصر هوية السريان والسريانية إلى ساحة الجغرافيا والتاريخ معاً. فالجغرافيا متمثلة في الموقع الجغرافي الذي أعطته رقعة هذه البلاد كطريق إلى الهند وآسيا، وصلة الوصل إلى العالم الغربي جعلت من أية قوة أرادت السيطرة على المنطقة عبر التاريخ، أن تصطدم بسوريا مهما كان الأمر. وبسبب طول التاريخ السوري في عمق الزمن من جهة، وتعدد الروافد التي غذت نهر التاريخ هذا، جعلت مكونات هوية سوريا متداخلة وليست متراكمة في طبقات، حيث نلاحظ أن بعض عناصر الماضي فقط، وليس الماضي كله هي التي تعيش في الحاضر من خلال اللغة السريانية، ومن شعب تتوزعه المسيحية والإسلام ويجمعه منبت وتاريخ واحد هو سوريا أو سريان سوريا.

هؤلاء السريان الذين سموا قديماً بالآراميين، ومدينة آرام الواقعة شرقي دجلة معروفة منذ الألف الثالث ق.م، لم ينظموا صفوفهم قبل القرن الرابع عشر ق.م ولم يصبحوا قوة يحسب لها حساب إلا في نهاية القرن الثاني ق.م أسسوا مملكة دمشق وغيرها من الممالك في القرن العاشر ق.م ولعبوا دوراً هاماً على مستوى المدينة، وكانت لغتهم الآرامية لغة الشرق طوال الألف الأول ق.م[1].

وأخذت السريانية – بتسميتها الجديدة – مكانة اللغة الأولى لألف ومئتي عام أخرى، إلى أن حلت العربية مكانها في معظم المناطق. ولكن هذه اللغة الآرامية السريانية قاومت الاحتلال الروماني لسوريا وامتداده البيزنطي الطويل خلال تسع مئة عام (٣٣٣ق.م – ٦٣٥م)

١ – مجلة المسرة – حريصا السنة ٧٤ / ١٩٨٨ أيلول – ك١ ص٥٦٣، الخوري بولس الفغالي.

في فرض اللغة اللاتينية أو اليونانية* من بعدها على السوريين. و (إن اللغة إطار حضاري معبر عن الذات والهوية، ولان اللغة ليست مجرد كلمات تنطق بها الألسنة، أو تجري بها الأقلام، ولان اللغة أداة تواصل ثقافي ووجداني بين أبناء المجتمع الواحد، ولان اللغة تحمل المخزون الحضاري للجماعة وتؤثر في طريقة التفكير وفي العقلية الجماعية)[1] لهذا كله، وكثير غيره، لم يتقبل السوريون لغة (الآخر) واتخذت لغتهم صيغة متطورة عن اللغة الآرامية هي اللغة السريانية (أي السورية). وبقيت هذه اللغة بالنسبة لأهل سوريا لغة التعامل اليومي، والصلوات في الكنائس والأغاني والأناشيد، وظلت مستخدمة حتى بعد الفتح الإسلامي.

وكانت سوريا قبل الفتح العربي سلة الخبز بالنسبة للرومان والبيزنطيين، كما أن الضرائب أثقلت كاهل السوريين واتخذت العلاقة بين أهل سوريا وحكامهم شكلاً لهباً مثيراً، ترك بصماته السلبية على أهل سوريا. وأضافت الاضطهادات المذهبية التي مارسها البيزنطيون ضد السوريين بعداً عدائياً جديداً بين الطرفين، وكان طبيعياً أن يرحب السوريون بالفاتحين المسلمين الذي جاءوا بدين جديد.

وحين فتح الإسلام هذه المنطقة كانت على درجة عالية من الحضارة، فيما اتى العرب من تركيبة قبلية أضعف اجتماعياً مما كان سائداً في هذه المنطقة، وهو ما يناقض مفهومنا الحالي حين غزت المجتمعات المتقدمة المجتمعات المتخلفة واستعمرتها وحملت إليها حضارتها — بخيرها وشرها — وما في هذه الحضارة من مفاهيم وقيَم ومُثل. صحيح أنها استغلتها واستثمرت خيراتها لأغراضها، ولكنها في الوقت نفسه أشبعتها بخمائر الثورة وحملت إليها بذور الانتفاض والتحرر مما آتى كله في قرننا الحاضر، فهبت رياح الحرية على كل المجتمعات المتخلفة ودفعتها إلى النضال من أجل تحررها من ربقة الاستعمار، ونبهتها إلى أهمية الاستقلال والحفاظ على طابعها القومي ضمن المجتمع الإنساني.

فيما أتى الإسلام إلى هذه المنطقة واستطاع أن يثبت أركانه وأن يتفاعل مع أهالي البلاد.: أعطى رسالته الإلهية وأخذ من حضارات المنطقة مما أوجد تجانساً رائعاً استطاع تجسيده في الحضارة العربية التي سرعان ما نمت وانتشرت وعمت أرجاء بلدان قصية.

ولأن المسلمين لم يبلغوا كتابهم المقدس إلا بالعربية، ولأنه لا يمكن فهمه وتفسيره وتلاوته إلا بالعربية، فقد أدى ذلك إلى جعل حضارة العرب كالملاك الأساسي للصرح الإسلامي كله.

---

* – منذ فجر المسيحية كان لعبقرية الحضارتين اليونانية أو الشرقية (والتي تسمى أيضا البيزنطية) واللاتينية أو الغربية (والتي تسمى ايضا الرومانية) شأن في ابداع نهجين للتفكير تعرض بهما حقيقة الله على العقل الإنساني.

١ – مجلة الكتب. وجهات نظر – القاهرة – العدد ١١ السنة الأولى ١٩٩٩ ص٥٠ قاسم عبده قاسم.

ويعلم الجميع كم هناك من لغات مختلفة كالإندونيسية والأردية، والفارسية، والتركية، والسواحلية، والولوفية، مدينة للعربية بألفاظها الدينية والقانونية والثقافية بل الإدارية والسياسية[١].

إذن المعادلة هنا تختلف عما يقال عن (غزو) أو (فتح) للبلاد السورية. أن الأرضية هنا هي أرضية سورية وعربية تجمعها مع بلاد الحجاز الكثير من الروابط والقربى، وكان بعث الإسلام في هذه المنطقة حتمية تاريخية، بعد أن نكل المستعمر البيزنطي بأهالي المنطقة الأصليين أي الوطنيين، بحيث كان هؤلاء العرب القادمين من الجزيرة العربية أقرب إلى مفهومهم وعقليتهم من البيزنطيين مع كل عظمة هؤلاء في حضارتهم المتقدمة. لهذا فإن دخول العرب المسلمين إلى سورية أوجد نوعاً من التزاوج كان عماده الاحترام المتبادل بين الطرفين وهو ما ساعد على قيام حضارة مترامية الأطراف*.

وقد عاش المسيحيون عرباً وغير عرب إلى جانب إخوانهم العرب المسلمين بطمأنينة وسلام، سيما وان المسلمين منذ البدء منحوا المسيحية أماناً وقطعوا لهم عهوداً ووعوداً تضمن لهم سلامتهم وحقوقهم الدينية[٢].

إن المسيحيين في سوريا هم أحفاد المسيحيين الأول، تاريخ جماعة عاشت جيلاً بعد جيل، ومازالت تعيش على هذه الأراضي التي قبلت أولا بشارة الرسل. ولقد شهد مسيحيو سوريا التحولات التاريخية الكبيرة كلها، منذ فتح المسلمين القادمين من مكة حتى السيطرة العثمانية التي دامت حتى سنة ١٩١٨.

---

١ – مجلة المسرة – حريصا السنة ٧٣ /١٩٨٧ ك٢ – شباط ص١٠١.

* – كثيرة هي الاستشهادات التي يمكن إيرادها عن العلاقة التي قامت بين المسلمين والمسيحيين حين وحدتهم هذه البلاد، ويمكن تدوين عشرات الكتب في ذلك. إن الطباعة التي هي المحرك الأول في الحضارات الحديثة كان بدايتها في هذه المنطقة.

فاللغة العبرانية هي أول لغة شرقية عرفت الطباعة، ففي سنة ١٤٥٥ طبعت التوراة العبرانية في (فراري) واشتهرت سنة ١٤٨٠ مطبعة سونسينو في ميلانو. وللغة العربية المقام الثاني في تاريخ الطباعة، فإن أول كتاب عربي نشر مطبوعا في (فانو) عام ١٥١٤ وسنة ١٥١٦ طبع سفر المزامير في جنوى، ثم نشرت في باريس مبادئ اثنتي عشرة لغة شرقية سنة ١٥٣٨ ثم نشر بالسريانية كتاب الجنازة ولقد نالت الكتب العربية في أوربا نصيبا مهما في الطبع.

عن مجلة المشرق – بيروت السنة الثالثة ص٨٠-٨١

كما تعتبر مطبعة دير مارقزحيا أقدم المطابع في لبنان على الإطلاق، كانت أحرفها سريانية ومطبوعاتها[x] دخلت دير مارقزحيا في أوائل القرن السابع عشر، إلا أن أخبارها مجهولة، ووجودها في هذا الدير منذ ذلك العهد لا شبه فيه. طبعت فيها اللغة العربية بالحرف السرياني[xx].

x– زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية م٢ ج٤ منشورات مكتبة الحياة – بيروت طبعة٢ ١٩٧٨ ص٤٠٥.

xx– مجلة الشرق – بيروت السنة الثالثة ص٣٥٥ مرجع سابق.

٢ – ساكا، المطران اسحق: السريان إيمان وحضارة، الجزء الأول دراسات سريانية حلب ١٩٨٣ ص١٩٦.

وكانت المسيحية هي الفاشية في سوريا حين دخول الجيوش العربية الإســـلامية عـــام ٦٣٥م إلى دمشق، وكان السريان في مقدمة عدد النفوس يليهم الروم ثم المسلمون وذلـــك في نهاية القرن السابع الميلادي، أما في القرن العاشر فأصبح المسلمون هم الأول ثم الـــروم ومـــن بعدهم السريان. حيث دخل القسم الأكبر من هؤلاء الإسلام نظراً لأسباب عديـــدة ربطـــت السريان مع المسلمين.

ومنذ أكثر من ألف سنة أو أكثر، لم تعد تعيش الكنيسة في سوريا الوضع القســـطنطيني الذي تحن إليه بعض الكنائس أحياناً، في مناطق يشكل فيها المسيحيون أغلبية منذ القدم[١]. وتعلم هؤلاء أن قوتهم لا تكمن في حماية أمير أو دولة، بل في محبتهم لبعضهم البعض وفي احترام عقائد جيرانهم.

ومع أن المسيحيين شكلوا بين خمس عشرة وعشرة بالمئة من سكان ســـوريا في القـــرن العشرين، فقد كان هذا يعني أن العرب ليسوا كلهم مسلمين، وان كان دين الأمة بأغلبيتـــها. وهذه الأقلية المسيحية لعبت دوراً هاماً في تاريخ نهضة الأمة العربية، وفي استعادة الهوية العربيـــة المفقودة جزئيا في عهد الأتراك. وقد اسهم المسيحيون في هذه المنطقة في إحياء اللغة العربيـــة لا سيما إذا نظرنا إلى عددهم المحدود، حيث تعتبر اللغة العربية من أهم عناصر الشعور الوطـــني في العا لم العربي.

. وحضور المسيحيين كعرب وليس كضيوف أجانب على العرب، هو علامـــة تعـــايش سلمي بين المسيحيين والمسلمين . ويقول البطريرك حكيم (إننا نحن العرب المسلمين والعـــرب المسيحيين، ننتمي إلى أصل واحد، ونعبد الإله الواحد، ونكرم الأنبياء أنفســـهم، وخلاصنـــا باعترافنا بالفريق الآخر وبما يجسد من قيم. وإن انفتاح المسيحي على الغرب لا يجعله أخاً مزيفا، بل بالأحرى صلة وصل بين الحضارتين والثقافتين والدينين اللذين يعترفان بالإله الواحد نفسه)[٢].

ومن الضروري هنا التمييز بين الحضارة العربية والحضارة الإسلامية، مهما كانت صعوبة هذا التمييز. فالحضارة العربية ليست حضارة إسلامية، والا لسميت (حضارة إسلامية). كما أن الحضارة الإسلامية تتميز عن الحضارة العربية، بدليل أن المسلمين العرب أقلية في الإسلام. إنمـــا الحضارة العربية إسلامية مسيحية يهودية، وان كان الطابع الإسلامي غالباً عليـــها. كمـــا أن الحضارة الإسلامية غربية وغير عربية، وان كان الطابع العربي غالباً أحياناً عليها[٣].

1- Braude & Lewis: Christians and Jews in the ottoma Empire, N.Y 1981 P.41 - 59.

٢- مجلة المسرة- حريصا السنة ٧٣ــ١٩٨٧ ت ٢ – ك ١ ص٦٧٩ البطريرك مكسيموس الخامس حكيم

٣ – مجلة المسرة حريصا السنة ٧٦ــ١٩٩٠ ك٢ – حزيران ص١٦١ الأب سمير خليل اليسوعي

على أنه يجب أن نفرق هنا بين الإسلام كعقيدة دينية والإسلام كحضارة، فإذا كان الإسلام كعقيدة ثابتا فالإسلام كحضارة متحول، والحضارة هي ما يحققه الإنسان في الطبيعة، الحضارة تعني ما يحدثه أو يبدعه أو يبدله الإنسان في كائن ما، أو في أمر طبيعي يصبح له قيمة. فالحضارة التي ظهرت في بلاد الشام، وفيما بعد في العالم العربي كله، هي من صنع الناس الذين قطنوا هذه البلاد.

ويقول طه حسين في ذلك:

(ليست اللغةُ العربيَّةُ لغةَ المسلمين وحْدَهُم، ولكنَّها لغةُ الذين يتكلَّمونها، مهما تختلف أديانَهم. وما دام الأقباط مصريِّين، وما دامت اللغةُ العربيَّة مُقَوِّماً من مُقوِّمات الوَحْدة المصريَّة والوطن المصريّ، فلا بُدَّ مِن أنْ يَتَثَقَّفْ بها الأقباط، كما يتثقَّفُون بها المسلمون، ولا بدَّ مِن أنْ يتثقَّفَ بها رجالُ الدِّين من الأقباط، كما يتثقَّفُ بها رجالُ الدِّين من المسلمين)[1].

وتحفل كتابات أبي عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ قبل سنة ٨٤٦ بالكثير مما يتناقله العامة عن المسلمين من ذلك:

وعطف قلوبَ دَهْماء العرب على النصارى الْمُلْكُ الذي كان فيهم، والقرابةُ التي كانت لهمّ. ثمّ رأت عوامُّنا أنّ فيها مُلْكاً قائماً. وأنَّ فيهم عرباً كثيرة، وأنَّ بناتِ الروم وَلَدْن لِمُلُوكِ الإسلام، وأنَّ النَّصارى متكلمين وأطباء ومُنَجِّمِين[2].

وفي مكان آخر يقول الجاحظ:
ومما عظَّمهم في قلوب العوامّ، وحبَّبهم إلى الطَّغام، أن منهم كُتَّاب السلاطين، وفرَّاشي الملوك، وأطباء الاشراف، والعطَّارين، والصيارفة[3].

أما الدكتور حسن حنفي فله رأي آخر يقول فيه :

لم يتعد دور العرب في التاريخ، ما نقرأ دائما في كتب تاريخ الحضارة الغربية وما تذكره عن دورنا، وما نكرره نحن على غير وعي منا، وهو الدور الذي لا يتعدى حمل العلم ونقله من اليونان وتسليمه لأوربا، أي أننا مجرد حمالين، حملنا العلم من اليونان، فاليونان هم مصدر العلم كما هو معروف في التصور الأوروبي لمصادر الحضارة الأوروبية. هذا التصور القومي للعلم مبني

١ - طه حسين: مستقبل الثقافة في مصر دار المعارف القاهرة ١٩٣٨ الجزء الثاني ص٢/٤٨٦ حاشية ٨٨
٢ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: ثلاث رسائل طبعة *J. FINKEL* القاهرة ١٩٢٦ ص١٦
٣ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون مكتبة الخانجي- القاهرة ١٩٧٩ الجزء الثالث ص٣١٣-٣١٤

على الشعور بالنقص أمام الحضارة الغربية وعلى تعويض ذلك بماضي الآباء ومآثر الأجداد، وبما أسدوه للغرب من خدمات تعويضاً عما يسديه لنا الغرب اليوم[1] .

إن التاريخ هو استمرارية، حيث في كل لحظة، تعطي معرفة الماضي للحـــاضر معنـــاه، ويعيد هذا الحاضر تمثيل الماضي، إذن فالحاضر يفسر بالماضي، لكن المـــاضي يكـــون خاضعـــاً للحاضر، وبما أن إعادة التنظيم هذه ليست قاطعة على كل حال، بل ترمي فحسب إلى إعـــادة بناء صورة أمينة أكثر ما يستطاع لمجموع مركب من الوقائع يمكننا تماماً أن نتصـــور أنـــه في مقدورنا الآن إعادة تنظيم سنة التقليديين الخاصة أفضل مما فعلوا.

http://www.al-maktabeh.com

١ – حسن حنفي : فكرنا المعاصر دار التنوير بيروت ١٩٨٨ ص١٤٩

الصلة بين المسيحيين والسريان والمسلمين

يتعامل التاريخ مع فيض من الأحداث والوقائع والشخصيات والظواهر، وهو يكشف بلا مواربة عن حقيقة بسيطة مؤداها أن لاشيء يبقى على حاله، كما يوضح أن التجربة الإنسانية حركية ومستمرة، كما يجعلنا نعرف أنه إذا كان ما يحدث في العالم الآن يكتسي أهمية ما فإن الناس الذين عاشوا قبلنا كانت لهم مشاكلهم وعرفوا كيف يتعايشون معها، حتى تنتهي واستمروا في الحياة بعدها. وهي حقيقة مؤداها أن حياة الجماعة الإنسانية تخضع للتغير المستمر، وان الحقيقة الوحيدة الثابتة هي أن كل شيء خاضع للتغيير.

وأهمية (قراءة التاريخ) في هذا السياق أنها تساعد (القارئ) في وضع الحاضر في مكانه الصحيح. ذلك أن التاريخ يهتم بالأسباب، ومن ثم فإنه يوسع من مدى إدراكنا للعملية التاريخية. وإذا (قرأنا) بوعي، نظرنا إلى المشكلات التي تعكر صفو الحاضر برؤية أكثر تنظيماً لأن معرفة كيفية عمل المجتمع في الماضي ــ من خلال قراءة التاريخ ــ قد تفتح عيوننا على الإمكانات والبدائل الكامنة في الحاضر[1].

حتى نقرأ تاريخ سوريا الطبيعية نعود إلى الوراء لنستكشف الماضي ونستحضر الحاضر في موضوع المسيحية السورية ودخول الإسلام إلى هذه البلاد.

لقد قيل الكثير في هذا التاريخ، فجرجي زيدان يقول: ليس في تواريخ الأمم الراقية اسقم من تاريخ العرب قبل الإسلام، حتى تهيب الكاتبون الخوض فيه لوعورة مسلكه وتناقض الأقوال

١ - قاسم عبده قاسم: قراءة التاريخ وتطور دور المؤرخ، صحيفة الحياة – لندن ١ /١٠ / ١٩٩٩ ص٢٣.

فيه. وبعكس ذلك تاريخهم بعد الإسلام، فالهم لم يتركوا خبراً من أخباره أو رواية أو واقعة إلا دونوها وفصلوها، كأنهم شغلوا بهذا عن ذاك أو لعلهم أرادوا محو مفاخر الجاهلية وإقامة مجد الإسلام مكانها[1]

ويذهب الدكتور العروي إلى أنه لا توجد، للأسف، دراسة وافية، مرضية في موضوع كيف مارس المجتمع العربي الكلاسيكي في القرنين الثاني والثالث الهجريين البحث والسنن التاريخيين[2]

ونحن نقرأ في هذا الفصل سنستخدم المكان الذي يحتفظ هذا المجتمع للماضي في رؤية حاضره ومستقبله وبالتالي في عمله.

بعث الإسلام

كان يسود الجزيرة العربية التركيبة القبلية حينما بعث الإسلام، حيث كان للعروبة معنى وجودي فأعطاها إشارة الوثوب والانطلاق. وعلينا هنا الإشارة إلى أن العروبة قبل الإسلام لم تكن إحساساً قومياً مميزاً، فالقبائل التي تكلمت اللغة العربية كانت مقسومة الانتماءات، فمنها الموالية للحكم الفارسي والمجندة له كقبيلة بني منذر ومنها القبائل المسيحية كالغساسنة، أما القبائل الباقية المنتشرة في بقع أخرى من الجزيرة فلم يكن عندها أي حس لانتماء قومي معين، فالانتماء الوحيد لها هو الانتماء القبلي فقط.

وأحدث الإسلام ثورة في بقاع الجزيرة العربية في اختلافه عن ديانات الشعوب القديمة حيث كانت له رؤية جديدة شاملة كلية وموحدة للعالم، فأعطى للعروبة الروح فوجدت وأعطت العروبة للإسلام الجسد فنهض. ولكن الإسلام كفكرة هو أوسع بكثير من العروبة، فالتضامن الإسلامي يعتمد على المبادئ الدينية الإسلامية، أما التضامن العربي فيعتمد على المبادئ الواقعية والتاريخية. وشاهدنا على ذلك لاوجود لشعوب عربية غير إسلامية فيما نصادف شعوبا إسلامية غير عربية.

١ – جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام – دار الحياة – بيروت ص٢٩.

٢ – د. عبد الله العروي: أزمة المثقفين العرب، تقليدية أم تاريخانية، ترجمة: ذوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٨، ص١٨.

والأمر الذي يلفت الانتباه قبل كل شيء في تاريخ الجزيرة العربية هو عدم دخول أي غزو منظم إلى داخل هذه المنطقة الصحراوية، بحيث كان التناقض واضحاً بين الهلال الخصيب شمالاً والجزيرة العربية جنوباً: الطبيعة الصحراوية في الجزيرة العربية وطبيعة المنطقة المحيطة في الشمال الخضراء ولّدت عنصر التناقض الطبيعي. الكثافة الحضارة في المناطق الشمالية الذي يقابل فراغاً دينياً بالجزيرة فقد ولّد التناقض الديني الذي منه انطلق الإسلام في الجزيرة أولاً، ومنها إلى الخارج ثانياً. أتى الإسلام في الجزية مطوراً وموحداً. التطوير كان تجاه التخلف الاجتماعي والسياسي، فكان منظماً للعلاقات الاجتماعية عامة والعائلية خاصة. التوحيد كان للقبائل العديدة المتصارعة فيما بينها[1].

لم يصعد الإسلام عن فراغ فقد كان هناك حالة من التفكك الاجتماعي والسياسي والتناحر بين القبائل العربية التي أنهكت بعضها في الغزو والحروب، كما كان هناك التنازع بين الغساسنة واللخميين في الشمال وحروبهما المستمرة والمدعومة من دولتي الفرس وبيزنطة، كذلك الحروب بين فارس وبيزنطة التي أنهكت المنطقة وأبادت الشعوب التي تعيش فيها، وأخيراً الخلافات والانقسامات المسيحية حول طبيعة المسيح والتي أخذت تنتج المجازر والتهجير والحقد وتبتعد عن الصورة الأولى لكنيسة المسيح.

ومن المعروف أن المسيحية كانت منتشرة في الجزيرة العربية، وكان قصي زعيما لتحالف قريش حيث استطاع بمعونة قبيلة عذرا النصرانية أن يطرد من الكعبة بني بكر وخزاعة وأن يتولى أمرها، وهو الذي استطاع إعادة الحجر الأسود من قبيلة إياد التي دفنته في جبال مكة وإعادة بناء الكعبة. ومن المعروف أن قصي هذا جد الرسول محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي.

وكان ورقة بن نوفل في ذلك الوقت "رئيسا" للنصارى في مكة وكان مع أصحابه يمارس الخلوة الروحية في غار حراء صلاةً وصياماً و"قراءةً وتأملاً" وكان الرسول محمد بن عبد الله يشارك فيها. وفي عام ٦١١م تزوج محمد بن عبد الله بخديجة ابنة عم ورقة بن نوفل، وكان في غار حراء حين جاءه الوحي بالرسالة فأخبر زوجته التي سارعت فأخبرت ورقة بن نوفل والراهب عيصا الذي أتاه الله علما كثيراً، وقس بن ساعدة الإيادي النسطوري السرياني، الذي هو أفصح العرب[2].

---

١ - كحالة، د. اندريه: في قضية شعبنا الآرامي المسيحي، مجلة آرام — ستوكهولم، العدد السادس، شتاء عام ١٩٩٣ ص١٣٣.
٢ -حشوه، ادوار: اثر المسيحية المشرقية في الحضارة العربية — حمص ١٩٩٨ ص٧.

لقد كانت علاقة الرسول الجديد مع النصارى جيدة و لم يذكر التاريخ أي حـــادث في عداء، على عكس ما ذكر عن تصرفات من اليهود ضد الرسول ومحاولات لقتله. ويقال إنـــه حين تعرض أتباعه للاضطهاد من قريش نصحهم بالذهاب إلى نصارى الحبشة الذين أكرموهم.

ويذكر الأب البير أبونا هذه الحادثة عن الرسول العربي وهي أنه كان في الكعبة إضافـــة للأصنام صور الأنبياء والشجر والملائكة وصورة إبراهيم الخليل وعيسى بن مريم وأمه. فلما كان يوم فتح مكة دخل رسول الله للبيت فأرسل الفضل بن العباس بن عبد المطلب فجاء بماء زمزم، ثم أمر بثوب مبلل بهذا الماء، وأمر بطمس تلك الصور ووضع كفيه على صورة عيسى بن مـــريم وأمه، وقال امحوا جميع الصور إلا ما تحت يدي[١] .

ومما ذكرناه نرى أن الفتوحات العربية الإسلامية حين أتت لسوريا لم تكـــن آتيــة إلى شعب وأرض غريبة عنها، من هنا يستنتج عدة أمور في دراسة القرون التي سبقت ذلك.

المسيحيون العرب

إن المسيحية السورية عريقة وأصيلة وغنية في جذورها وأصولها وتطبّعها بعقلية الشعوب المختلفة التي عاشت وتعيش معها، وهي تنطوي، في كل ملة وطائفة، على تقـــاليد وعـــادات ونظريات لاهوتية تأثرت بها سائر الكنائس في العالم، فتشعبت من جراء ذلك الصلات وتواترت مع المسيحية المنتشرة عبر العالم.

وإذا قلنا (العرب) اليوم أردنا سكان جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والســـودان والمغرب، أما قبل الإسلام فكان يراد بالعرب سكان جزيرة العرب فقط، لأن أهـــل العـــراق والشام كانوا من السريان والكلدان والأنباط واليهود واليونان، وأهل مصر من الأقباط وأهـــل المغرب من البربر واليونان، والوندال، وأهل السودان من النوبة والزنوج وغيرهم، فلما ظـــهر الإسلام وانتشر العرب في الأرض وتوطنوا هذه البلاد وغلب لســـانهم علـــى ألســـنة أهلـــها فسموا عربا[٢] .

١ – أبونا، الأب البير: تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية، ٣ أجزاء، الجزء الثاني ص٤٥، دار المشرق – بيروت ١٩٩٢.

٢ – زيدان جرجي: العرب قبل الإسلام، مكتبة الحياة – بيروت ص٤١ مرجع سابق.

http://www.al-maktabeh.com

وقد تأخر العرب عمن حولهم في الحضارة، وغلبت عليهم البداوة، وعاش أكثرهم عيشة قبائل رحل، لا يقرون في مكان، ولا يتصلون بالأرض التي يسكنونها اتصالاً وثيقاً كما يفعل الزراع، بل هم يتربصون مواسم الغيث، فيخرجون بكل مالهم من نساء، وابل يتطلبون المرعى، لا يبذلون جهداً عقلياً في تنظيم بيئتهم الطبيعية، كما يفعل أهل الحضر، إنما يعتمدون على ما تفعل الأرض والسماء فإن أمطروا رعوا، وإلا ارتقبوا القدر، وليس هذا النوع من المعيشة بالذي يرقي قومه ويسلمه إلى الحضارة، إنما يسلم إلى الحضارة عيشة القرار واستخدام العقل في تنظيم شؤون الحياة[١].

وقد عمت المسيحية أطراف الجزيرة من الجنوب، إلى الشرق، إلى الشمال، حيث الأسقفيات عامرة حتى في المناطق النائية من حضرموت، إلى عُمان، إلى البحرين، إلى مسقط وظفار، تنافسها في بعض المناطق اليهودية. وكان الصراع بين المسيحية واليهودية قائماً للسيطرة على الحجاز. ولما أصبحت المسيحية دين الدولة عند الروم، اضطر النصارى من بني إسرائيل إلى الهجرة إلى مكة والحجاز المحجوز بصحاريه من الدولتين الجبارتين: الروم والفرس، لأن اليهود سبقوهم بهجرتهم الجماعية إلى فارس. وأولئك النصارى من بني إسرائيل هم الوارد ذكرهم في القرآن الكريم بالثناء المحبب، حيث يشهد بصحة إسلامهم ((ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون (الأعراف ١٥٨). ولظهور هذه النصرانية على اليهودية كان جهاد الرسول العربي بنص القرآن القاطع في (الصف ١٤) وكان يمثل هذه (النصرانية) ابن عم الرسول، وعم السيدة خديجة التي زوجه إياها، القس ورقة بن نوفل، كما كان يمثل المسيحية القس عداس في مكة، وهو غير الأجير العداس الذي صادفه الرسول في الطائف، كما يشهد بذلك الحديث والسيرة[٢])).

وشكل الآراميون أرضية الشعب التي قامت عليها المسيحية الأولى ومن ثم اتباع بيزنطة فالعرب الذين وصلوا هذه البلاد، والمسيحية مديونة بالكثير لسوريا. إنها نبعت من هنا، من بلداننا التي صارت عربية من بعد، أنها ليست من الغرب، ولا هي دخيلة على شرقنا، بل هي من صلب تراثه، ومن منابع ومقومات حضارته.

ومهما يكن من مبادئ النصرانية في بادية الشام، فمن المحقق أن أول المسيحيين عند العرب كانوا من أهل البدع المدعوين هراطقة، فقد ذكر كتاب القديس هبوليتس الموسوم باسم (الفلسفيات) تخيلات غريبة لأحد الأعراب المدعو مونوئيم، من اتباع أهل المعرفة الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثاني. وليس لدينا غير ذلك في الوثائق التي ترتقي إلى ما قبل القرن الثالث.

---

١ – أمين، احمد: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٩٧٥ ص٤.

٢ – مجلة المسرة – السنة ٥٧ / ١٩٧١ نيسان ص٢٧٨.

وتسربت النصرانية إلى أكثر القبائل العربية، وقام فيها الأمراء والشعراء والخطباء، إلا أنه لم يكن العرب، في الجملة أصحاب شعور ديني عميق، ولم تكن ثقافتهم الدينية متأصلة فيـــهم، ولاسيما الرحل منهم، لذلك لم تنشأ قبل الإسلام كنيسة مسيحية عربية ذات طابع قومي، لهــا كتابها ولغتها وطقوسها، كما نشأ عند السريان. وكانت غسان ولخم وحمير، أقـــوى الكتـــل المسيحية ، قد ضعفت سياسياً وتضاءل نفوذها في سائر القبائل العربية، في آخر القرن السادس. وما أن اطل القرن السابع حتى الهارت هذه الدول فانتقلت الزعامة إلى قريش.

لقد انتشرت المسيحية بين القبائل العربية في منطقتي حوران وشرق الأردن، كما كـانت منتشرة بين الشعوب الآرامية واليونانية. وأقام العرب الأنباط لأنفسهم في القرن السادس قبـــل الميلاد، في جنوب شرق الأردن، دولة بلغت أوج عزها في عهد الحارث الرابع (٩٠ – ٤٠ق.م) وامتدت إلى قلب سوريا، وحكمت دمشق مدة واعترفت بها الدولة الرومانية ولكنها ســقطت بيد الرومان سنة١٠٦ بعد الميلاد، وجعلوها مقاطعة عرفت بالمقاطعة العربية الرومانية، قاعدتهــا بصرى، وهي إحدى المقاطعات الخمس عشرة التي كانت تؤلف ولاية سوريا وقاعدتها إنطاكية [١] .

كما يبدو أن دولة حمير في اليمن لم تتمتع بقوة سبأ ولم تصل إلى نفس المكانـــة الـتي وصلتها سبأ حضارةً واستقراراً ورفاهاً، لكن مثلها مثل سبأ تعرضت دولـــة حمـــير لضغـــط الإمبراطورية الرومانية الشرقية ولتهديدها، واعتمدت بيزنطة المسيحية في سبيل بسط نفوذهـــا على اليمن على الضغط الاقتصادي والتهديد السياسي وعلى جيش من المبشـــرين والرهبـــان ورجال الكنيسة، وعلى دولة الحبشة النصرانية. ومنذ النصف الثاني للقرن الرابع للميلاد نشـــط المبشرون النصارى نشاطاً كبيراً في جنوب شبه الجزيرة وغيرها من المناطق، وكان معظمهم مـــن السريان، وقد حقق هؤلاء المبشرون أعظم نجاحاتهم بين قبائل أطراف اليمن في نجـــران ومـــا جاورها وفي داخل اليمن نفسها، وجاء في المصادر السريانية في حـــدود ســـنة ٣٥٤م بعـــث قسطنطيوس الأريوسي إلى البلاط الحميري وفداً برئاسة ثاوفيلس السيلاني الهندي فنصر الملـــك وبنى في بلاط حمير ثلاث بيع [٢] .

وكانت الحيرة مركزاً هاماً من مراكز انتشار الديانة المسيحية إذ يدعي الطبري أن امـرئ القيس الأول (٣٢٨ – ٢٨٨م) كان أول من تنصر من ملوك الحيرة وبنى الكنائس العظيمـــة، بشكل واضح في عهد المنذر بن ماء السماء (٥٦٢ – ٥١٣م).

---

١ – فرح، الأب اغناطيوس: ابرشية حوران، مجلة المسرة– حريصا السنة ١٩٤٨/٣٤ ك٢.

٢ – حتي، د. فيليب: تاريخ العرب، ترجمة ادوار جرجي، د. جبرائيل جبور، دار غندور – بيروت ١٩٧٤ ص١١٦.

ففي عام ٥١٣ قصد أسقف الحيرة هذا الملك ليبشره بالمسيحية فاستمع إليه باهتمام، ولكن دخل عليه أحد ضباطه فهمس في أذنه ببعض الكلمات، وفجأة هب الملك واقفاً وقد بدا عليه الحزن، ولما استفسر الأسقف عن سبب ألمه، أجاب أنه قد سمع بأنباء محزنة، فقد مات رئيس الملائكة ميخائيل، فأجابه الأسقف أن ذلك من المحال، فقد خدعوك، إذ إن الملائكة لا يموتون، فآمن الملك بالمسيحية وتنصر منذ ذلك الحين، وتزوج هند وهي سريانية.

ثم اعتنق النعمان بن المنذر (٥٨٣ – ٥٠٦) المسيحية وترك عبادة الأصنام وأذن للنصارى بممارسة شعائرهم الدينية بحرية. والدليل على انتشار المسيحية في المنطقة كثرة الأديرة التي أنشئت على أطراف الحيرة، إذ أورد الإخباريون ذكر أكثر من عشرين ديراً فيها، وقد درس رجال الدين هناك، وترجموا العديد من الكتب الفلسفية والدينية إلى اللغة السريانية التي كانت شائعة عندهم[1].

وكانت الغلبة في الحيرة للمذهب النسطوري ولكن هؤلاء السريان اشتركوا سوية في البناء الفكري للحيرة، وبفضلهم أصبحت الحيرة نقطة التقاء التيارات الإيرانية والسريانية على حدود المحيط العربي الفاصلة، فظهرت بمظهر العاصمة الفكرية، وكان لها الفضل الكبير في إحلال ثقافة الفرس واليونان والسريان، والثقافة الشمالية عامة، في الجزيرة العربية ما قبل الإسلام.

أما بنو غسان (الغساسنة) فيرجع نسبهم إلى قبيلة قديمة من عرب الجنوب، وقد نزحت من اليمن فاحتلت الأرض التي كان بنو سليخ قد سبقوهم إليها وشيدوا فيها أول ملك للعرب في الشام، فاستقر الغساسنة في نواحي الجنوب الشرقي من دمشق على مقربة من الطرف الشمالي لطريق النقل العظيم الذي كان يربط مأرب بدمشق. وكرت الأعوام فإذا غسان قد تنصرت واصطبغت بالصبغة السورية واتخذت الآرامية لغة لها، إلا أنها لم تهجر لسانها العربي الأصيل بل أن أبناءها أصبحوا كغيرهم من قبائل العرب في الهلال الخصيب مزدوجي اللغة. وقبل انقضاء القرن الخامس للميلاد غشت أرض غسان مؤثرات سياسية أدخلتها ضمن دائرة النفوذ البيزنطي السياسي. ولقد قصد الروم بذلك أن يجعلوها حاجزاً لرد هجمات البدو. ولما كان من مصلحة الغساسنة السياسية اعتناق النصرانية وهي دين البيزنطيين فقد اعتنقوها ولكن على المذهب المونوفيزي – مذهب أصحاب الطبيعة الواحدة – وهو المذهب الوطني الغالب في البلاد السورية[2] ويعرف في سوريا بالسريانية.

---

١ – سوسة، أحمد: العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر – دمشق- الطبعة السادسة ص٢١٤.

٢ – حتي، د. فيليب: تاريخ العرب مرجع سابق ص١١٦.

وبلغ الغساسنة أوج مجدهم خلال القرن السادس الميلادي، ويكاد يقتصر تاريخ العـرب في هذا القرن على مآتي الحارث الثاني ابن جبلة ملك غسان (نحو ٥٢٩ – ٦٩) والمنذر الثـالث ابن ماء السماء ملك الحيرة (المتوفي ٥٥٤).

وقد سافر الحارث إلى القسطنطينية لزيارة بلاط يوستينوس الأول ٥٦٣ فأعجبت بطانـة القيصر بمرأى ذلك الشيخ العربي وما عليه من مسحة البداوة. ويقال أن يوستينوس ابن أخـي القيصر الذي خلفه راعته سيماء الأمير العربي وطلعته الغريبة حتى إذا بلغ من العمر عتياً وأصابه الخرف – فيما تقول القصة – كان أهل خاصته بالبلاط إذا شاؤوا الخلاص من عربدته يخيفونه بالحارث قائلين (صه! هوذا الحارث جاء ليأخذك!) فلا يكاد يسمع كلامهم حتى تأخذه سورة من الفزع فيسكت. واغتنم الحارث فرصة مكثه في القسطنطينية فعمل على تعيـين يعقـوب البرادعي، وهو مطران الرها وأحد أنصار البدعة المونوفيزية المعروفين بأصحاب الطبيعة الواحـدة أسقفاً على الكنيسة السورية العربية. وبلغ من غيرة هذا الأسقف وحميته في بث أصول ديانته أن صارت الكنيسة المونوفيزية بعده تعرف بكنيسة اليعاقبة[1] أي السريان.

وقد عينه الإمبراطور البيزنطي أميراً على جميع قبائل العرب ومنحـه لقـب (فيـلارك وبطريق) وهو أعلى لقب بعد الإمبراطور وقضى أكثر أيام حكمه في محاربة المنذر الثالث أمـير الحيرة، وحزيران سنة ٥٥٤ انتصر الحارث نصراً عظيماً على المنذر في قنسرين. وربما كـانت هذه الواقعة هي التي عرفت عند العرب بيوم حليمة والتي ورد فيها المثل المشهور (ما يوم حليمة بسر)، وقد سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣ إلى القسطنطينية ليفاوض الإمبراطور في شؤون الحرب التي بينه وبين الحيرة، وفي من يخلفه على كرسيه، ومات سنة ٥٦٩ أو ٥٧٠.

ويبدو أن بني جفنة لم يعرفوا النصرانية إلا في عهد متأخر وانهم منذ تنصـروا انتحلـوا المونوفيزية. وقد كان من هؤلاء المونوفيزيين في بلاد (العربية) منذ أوائل القرن السادس. ويقول يوحنا الآسيوي أن بولس البطريرك الإنطاكي (٥١٩ – ٥٢١) قد لاحقـهم بشـيء مـن الإعنات. ويقول ملالاس وبروكوبيوس أن كثيراً من الجند المسيحيين كانوا في جيش الحارث بن جبلة في موقعة غلينكي. ونهج المنذر نهج أبيه فكان من أنصار المونوفيزية، وفاق أباه في اهتمامه بالشؤون الدينية، وكثيراً ما كانت تقواه مدعاة للبيزنطيين لتملقه أو للكيد له عنـد ارتيـاده مقامات العبادة والحفلات الطقسية، وقد سعى كثيراً لقطع دابر النزاعات بين بني دينه[2].

١ – حتي، د.فيليب: تاريخ العرب مرجع سابق ص١١٧.

٢ – نصر الله الأب يوسف: قبائل العرب للمسيحية في سوريا قبل الإسلام، مجلة المسرة السنة ١٩٤٩/٣٥ ك١ ص٥٩٨.

ويعتبر الغساسنة أرقى عقلية من عرب الحيرة لأنهم كانوا أقرب اتصالا بالثقافة اليونانية والمدنية الرومانية، مع أن عرب الحيرة إذ ذاك كانوا في رخاء يحسدهم عليه غيرهم من العرب لخصب أرضهم، كما أن هؤلاء كانوا أرقى أيضاً، عقلاً ومدنية من عرب الجزيرة لتحضرهم لمجاراتهم مدنية الفرس العظيمة.

وقد انقسمت النصرانية في ذلك العهد إلى جملة كنائس، وإن شئت فقل إلى جملة فرق، تسرب منها إلى الجزيرة فرقتان كبيرتان: النساطرة والسريان، فكانت النسطورية منتشرة في الحيرة والسريان في غسان وسائر قبائل الشام. وكان نصارى نجران على المذهب السرياني واشتهر من رؤسائهم قبل الإسلام قس بن ساعده[١].

وكان كثير من آباء الكنيسة فلاسفة قبل أن يكونوا رجال دين، لأنهم رأوا من الضروري أن يؤيدوا أنفسهم وعقائدهم أمام الوثنيين، فلجؤوا إلى الفلسفة يستمدون منها التعليل والبرهان، فتسربت إلى النصرانية فلسفة أرسطو وأفلاطون وغيرهما. وكان أول كتب استخدمت لبث الثقافة اليونانية هي المكتوبة باللغة السريانية والتي خلفتها مدارس نصيبين والرها (وهما بحق أول جامعتين نشأتا في سوريا).

الفتح العربي لسوريا

يقول د. فيليب حتي أن الفتح الإسلامي للبلدان العربية كان الفوز الأول به للقومية العربية لا للدين الإسلامي، و لم يدخل السواد الأعظم من سكان سوريا والعراق وفارس في الإسلام حتى القرن الثاني والثالث للهجرة. إذن فبين الفتح العسكري والفتح الديني حقبة طويلة من الدهر، وإذا كانت الأمم المغلوبة قبلت الإسلام بعدئذ فلأنها أرادت الخلاص من الجزية وتاقت لمشاركة الطبقة الحاكمة في ولاية الأمور. وبعد الفتح العسكري والفتح الديني سار العرب والمستعربون في منهاج الثقافة بخطى واسعة فأصبح الإسلام ثقافة وركز أركانه على أساس ما ورثه من حضارة السريان والآراميين والفرس واليونان التي تحدرت إليه[٢].

١ - أمين، احمد: فجر الإسلام مرجع سابق ص٦٩.

٢ –حتي، د. فيليب: تاريخ العرب مرجع سابق ص٢٠٢

وابتدأ الزحف العربي والإسلامي على سوريا في النصف الأول مـن القـرن السـابع، وتعاقب عليها حكم الأمويين المعروفين بتقربهم من المسيحيين وسياستهم الحرة السمحة ثم حكم العباسيين فالأتراك السلاجقة فالمماليك العثمانيون والأتراك العثمانيين. ونشا من جراء الفتـح العربي والإسلامي إمبراطورية عربية واسعة الأطراف تمتد من الهند شـرقاً إلى فرنسـا غربـاً. وهاجرت قبائل عربية عديدة إلى بلاد الشام والعراق ومصر وإيران والمغرب والأندلس. وتأسس كيان جديد كانت الكلمة العليا فيه للعرب والإسلام، وان ظلوا يتكلمون على السريان والعجم والبربر فقد اخذ الاندماج يتم شيئا فشيئاً، وخرجت الكلمة العليا من العرب بعـد الأمويـين وسيطر الفرس والأتراك المسلمون: فبنو طولون في مصر أتراك، وبنو بويه فرس، وبنو سـلجوق أتراك، ونور الدين تركي، وصلاح الدين كردي. ومن الكتاب والفلاسفة والشعراء الكبار ابـن المقفع وأبو نواس وابن الرومي والجاحظ والفارابي وابن سينا وابن رشد وسـواهم كثـيرون لم يكونوا من أصل عربي، ولا ينتسبون إلى أية قبيلة عربية، وإنما كل هؤلاء عـرب بالنسـبة إلى الوضع الجديد الذي قام، لا على أساس عنصري، بل على أساس ثقافي وحضاري.

وعلى هذا الأساس استعرب نصارى الإمبراطورية العربية الذين هم من أصل غير عـربي، ما خلا فئات صغيرة كالأرمن والآشوريين فتكلموا اللغة العربية، وساهموا في بنيان الحضـارة، وإنما تأخر اندماجهم بسبب وضعهم القانوني ونظام الأحوال الشخصية، وكانت عزلتهم أقـوى في الجبال كمنطقة معلولا، ووادي قاديشا، وجبال طور عابدين وماردين.

ولما بلغ الفتح العربي أشده، انصهر السريان الآراميون في البوتقة العربية، وحملوا الهويـة العربية، فصاروا (عرباً) انتقالاً وفقد الاسم السرياني من ثم مدلوله القومي، وأضحى مرادفاً لمعنى (المسيحية) أي لا يعني سوى مدلول ديني صرف فقط. وكان السبب المباشر والعامل الأقـوى في أحداث هذا التحول التاريخي الخطير في حياة السريان، غلبة اللسان العـربي الـذي سـاد المرافق السريانية كافة، وتغلغل حتى في الحياة الكنسية والدينية، وأضحت اللغة العربيـة لغـة التخاطب أو التعامل، ثم لغة الثقافة والأدب، وأما السريانية فغدت لغة دين وكنيسة ولا يـزال الأمر حتى اليوم[1] .

وانطمس الكيان العربي تحت حكم الأتراك في وحدة كبيرة لها طابع إسـلامي، وتمـيز المسيحيون بطوائفهم، وسماهم العثمانيون (ملة) على طراز الجنسيات التي ظلت قائمة في البلقان تحت النير العثماني، فنزح من نزح منهم واسلم من اسلم، وأصبحت المسيحية شيئاً فشيئاً أقليـة

١ ساكا، المطران اسحق: كنيستي السريانية مطابع ألف باء — دمشق ١٩٨٥ ص٨٩

http://www.al-maktabeh.com

في خضم العالم الإسلامي. فعاش المسيحيون بحكم وضعهم الديني والسياسي والاجتماعي في عزلة عن الحياة العامة. واحتمل العرب المسلمون الحكم العثماني على ظلمه أكثر مما احتملوا حكم الفرنجة، وذلك لأنهم رأوا فيهم اخوة في الإسلام (فكان في بلادنا مجتمعان منكمشان على ذاتهما، يتجاهلان ويتنافران، والناس أعداء ما جهلوا)[1]. غير أن الشعور العربي قد انبعث في مطلع النهضة، وشعر العرب بتميزهم عن العثمانيين كما شعر المسيحيون العرب بما يربطهم بالمسلمين العرب، وراحوا ينادون بالاستقلال الذاتي والإصلاحات، ثم طالبوا بالاستقلال، وتغنوا بالوحدة العربية شاعرين، شيئاً فشيئاً بوحدة مصيرهم مع مواطنيهم من المسلمين، بعد أن أقرت الدساتير الحديثة في شرائعها المساواة بين أبناء الوطن الواحد.

ولما استقل العرب شاءت الأحوال السياسية أن يكونوا دولاً تناسب على وجه التقريب، الدول القديمة التي سبقت قيام العرب في البلاد. وانطلقت بالأخص من سوريا، الفكرة الداعية إلى وحدة الأمة العربية، وإلى إلغاء الحدود المصطنعة، فيما قامت فئة تدعوا إلى قومية سورية تضم شعوب سوريا الطبيعية[2].

وكنا ذكرنا أنه عند الفتح العربي كانت تمزق الكنيسة السورية بدع وأحزاب متطاحنة، فلم تقاوم إلا مقاومة رخية اندفاع الإسلام الحديث النشأة المار في عبادة الإله الواحد. لكن الإسلام لم يظهر مضطهداً ولا غير متساهل، بل كان في جوهره سمحاً يقبل إلى جانبه أدياناً أخرى لها كتبها المنزلة، وشريعة الجهاد عنده كانت تقوم في أحوال معينة. فالكنائس المسيحية، بخضوعها لحماية الإسلام وشريعته التي تفضل ديناً على آخر ولا تقضي على سائر الأديان، سوف تحافظ على كيانها الروحي بقدر ما تجد في إيمانها عاملاً يسهل لها الدفاع عن النفس حتى البطولة وعلى مدى قرون طوال إزاء الضغط الأدبي والاجتماعي الصادر من بيئة حياتها سهلة ومحللة للقيم الفائقة الطبيعة.

فالإسلام إذا لم يصدر شريعة بالاضطهاد الدموي بالمعنى المتعارف في العهد الروماني، ومع ذلك فقد استشهد المسيحيون في بعض حقب هذا التاريخ الطويل الذي يبدأ في القرن السابع. أما الحروب العابرة، ذات الصيغة السياسية — الدينية، التي قام بها البيزنطيون والصليبيون، فلم يكن منها لأهل البلاد المسيحيين إلا انزعاجات وفيضاً من المتاعب والمضايقات.

---

١ حكيم، البطريرك مكسيموس الخامس: شأن الكنيسة الكبير في الشرق الأوسط بمجلة المسرة — حريصا السنة ١٩٧١/٥٧ كانون ٢ ص٣و٤

٢ – ديك، الأب اغناطيوس: النصارى العرب والوطن العربي بمجلة المسرة — حريصا السنة ١٩٦٧/٥٣ حزيران ص٤١٥

فإذا مرق في بعض الأحيان إلى الإسلام جماهير غفيرة، فالسبب الحقيقي لهذا المروق إنما هو في فقر المؤمنين ورعاتهم الروحيين، وفي الجزية والخراج المفروضين منذ البدء على المسيحيين ثمناً لما ينالونه من دفاع وحماية. فالمسيحيون لم يكونوا خاضعين للخدمة العسكرية، ولا للتسخيرات والفوائض التي تقتضيها حالة الحرب الدائمة [1].

وينقل الأب حجار عن الأمير كاتياني في بيان له بعث به إلى المؤتمر التاريخي الدولي المنعقد في برلين (لم يكن العرب في أول عهدهم متعصبين، بل كانوا يعيشون كأخوة مع الساميين المسيحيين. فلما اغفل هؤلاء الإسلام، وقد وقع ذلك عاجلاً، أتوا إلى الدين الجديد بذلك التصلب والعداء الأعمى لأيمان بيزنطية، الذي كان من قبل سببا لضعف النصرانية في الشرق) [2].

هذا العداء لبيزنطة حسده أكثر الناس وطنية في هذه المنطقة وهم السريان في شكل صريح ومعلن، متحملين نتائجه إلى الآن.

انتشار السريان

لا يمكن حصر كلمة سريان في مفهوم واحد، ولكن السريان الأرثوذكس يجمعهم أربعة مفاهيم: عنصرية ولغوية وطقسية ومذهبية، وقد تنطوي هذه التعاريف على فئة من جانب أو آخر ولا تنطوي عليها من سائر الجوانب. فالملبار (سريان الهند) ليسوا سرياناً إلا من جهة الطقس والمذهب والسريان الكاثوليك من جانب العنصر واللغة والطقس دون المذهب (بمفهوم السريان الأرثوذكس)، والملكيون سريان بالعنصر واللغة ولفترة ما في الطقس وليس في المذهب، والنساطرة سريان من ناحية اللغة وقد لا يكون في العنصر، إذ بينهم من هم من عنصر إيراني أو عربي ومنهم من هو من عنصر سرياني، أما من ناحية المذهب والطقس فليسوا بسريان. أما المسلمون السريان، والذين يقدر عددهم بعشرين ألف نسمة ويسكنون في قرى قريبة من دمشق فهم سريان عنصرياً ولغوياً.

وقد تضاءل عدد السريان المتواحدين في سوريا كثيراً مقارنة لما كانوا عليه في السابق، والقسم الأكبر منهم دخل الإسلام، خاصة في القرن الثاني والثالث الهجري، وفي أوقات لاحقة.

١- حجار، الأب الدكتور يوسف: مجلة المسرة – حريصا السنة ٦٦/١٩٨٠ آذار – نيسان ص١٩٦

٢- حجار، الأب الدكتور يوسف: مجلة المسرة – حريصا السنة ٦٦/١٩٨٠ آذار – نيسان مرجع سابق ص١٩٧

وانقسموا إلى آشوريين وسريان أرثوذكس وكاثوليك وموارنة وكلدان في قرون لاحقة.ويعتبر السريان الأرثوذكس أنفسهم الأرومة الأولى في العائلة السريانية، وانتشارهم الأولي هو في سوريا الطبيعية، وفي القرن العشرين امتد انتشارهم إلى بلاد الغرب والأمريكيتين.

وفي دراسة علمية، هي الأولى من نوعها[1] استطعنا أن نقدر عدد السريان الأرثوذكس بـ٢٥٠ – ٣٠٠ ألف، نصفهم يتواجد في الجمهورية العربية السورية والباقي موزع على بقية البلدان. فيما يرى البطريرك زكاعيواص أنه يوجد ستمائة ألف من أبناء كنيسة إنطاكية السريانية الأرثوذكسية يتكلمون اللغة السريانية، أما أبناء الكنيسة فيعدون حوالي الأربعة ملايين موزعين بين مختلف الأمم ومختلف الثقافات[2] .

إن الصلة التي ربطت سوريا في المرحلة المسيحية والهند مما لا يمكن المرور عليه دون التوقف عنده، فالسريان هم أول من أنشأ جالية سورية خارج بلادهم من جهة الطقس والمذهب. على أن بعض المصادر تذهب إلى أن توما الرسول بشر عام ٥٢م في (ملبار) ــ ولاية كيرالا – لثلاث سنوات بين التعليم والتبشير، وهو الذي رافق قوافل التجار السوريين الذين كانوا يتاجرون مع الهند حيث عرفوه على بعض أشراف تلك البلاد وترجموا له أثناء بشارته.

كما توجه عام ٣٤٥م القائد والتاجر السرياني توما الكنعاني على رأس جالية سريانية من مدينة الرها بلغ تعدادها حوالي ٤٠٠ شخص إلى الهند، قاصدين مدينة أخرى في كيرالا وهي كودنكلور.

وتعمقت الصلة بين الكنيسة السريانية الأم في سوريا وفروعها في الهند على مدى السنين الفائتة، وأضحى الآن يوجد في ولاية كيرالا على الأقل سبع كنائس أو طوائف هندية سريانية تفتخر بمسيحيتها السريانية وتعترف بدور السريان الحضاري عليها، وتستعمل اللغة السريانية في طقوسها.

ويورد أحد المصادر أسماء وعدد هذه الطوائف السريانية التي مزقتها الانقسامات، ولكنها لا تزال تفتخر بأصل كنيستها السريانية السورية وهي:

١-الكنيسة السريانية الأرثوذكسية (اليعقوبية) يبلغ تعداد أفرادها حوالي المليون وربع المليون .
٢-الكنيسة الأرثوذكسية السريانية (المستقلة) يبلغ تعداد أفرادها حوالي المليون وسبعمائة وخمسين ألفا.

[1] عبده، سمير: السريان: قديما وحديثا المعهد الملكي للدراسات الدينية – عمان ١٩٩٧ ص٩٠-٩١
[2] من خطاب لبطريرك السريان الأرثوذكس زكا الأول عيواص نشر في مجلة النشرة – دمشق السنة الثامنة ١٩٩٩ ص١٩

٣-الكنيسة السريانية الملبارية (الكاثوليكية) يبلغ تعداد أفرادها حوالي المليونين ونصـف المليون (تأسست في نهاية القرن السادس عشر).
٤-الكنيسة السريانية الملنكارية (الكاثوليكية) يبلغ تعداد أفرادها حوالي النصف مليون.
٥-الكنيسة السريانية الشرقية (النسطورية) يبلغ تعداد أفرادها حوالي الخمسة والعشرين ألفا.
٦-الكنيسة السريانية التوماوية (البروتستانتية) يبلغ تعداد أفرادها حوالي النصف مليون.
٧-الكنيسة السريانية التوماوية يبلغ تعداد أفرادها حوالي الخمسين ألفا[١] .

ويلاحظ في هذه الكنائس إصرارها على التسمية (السريانية) لها مع تمسكها باللغـة الأم، حتى أن الروائية الهندية اروانداتي روي، حين فازت بجائزة بوكر عام ١٩٩٧ والتي تعتبر من ارفع الجوائز الثقافية في بريطانية، تناقلت وكالات الأنباء اسمها مقرونا بأصلها(السـوري)[٢] . وهـو المصطلح الإنكليزي في ترجمة كلمة SYRIAN للغة العربية، التي تعني السرياني، أي أن الفتـاة سريانية الطائفة والتي تعني السوري أو السورية أيضاً.

١- أسعد، أسعد صوما: الكنائس الهندية السريانية بمجلة آرام – ستوكهولم العدد الأول ١٩٩١ ص٨٦-٨٧
٢- صحيفة الشرق الأوسط – لندن العدد ٦٨٩٧ ١٦/١٠/١٩٩٧ ص٢٢

http://www.al-maktabeh.com

من سوريا توحدت الأديان

رأينا أن الإسلام حين دخل سوريا لم يدخلها كقاهر لشعوبها، بل لحكامها الرومان البيزنطيين، ولهذا سهل دخوله إلى هذه البلاد فئة عامة الشعب وهم من السريان، سكان سوريا الأصليين، الذين عانوا الأمرين من الحكم الأجنبي على بلادهم مع التميز الطائفي ضدهم، وهؤلاء التقاهم العرب في أكثر من جانب، سواء ديني أو ثقافي حين صعوده إلى ديانته الإسلام.

وكانت سوريا في فجر المسيحية مقاطعة من الإمبراطورية الرومانية، قاعدتها إنطاكية. وكانت تمتد من جبال طوروس إلى صحراء سيناء ومن البحر المتوسط إلى حدود المملكة الفارسية شرقي الفرات، وقد عنى الرومان بكلمة (سريان) سكان هذه المقاطعة الأصليين وهم مزيج من الشعوب السامية القديمة التي استوطنت بلاد الشام عبر العصور من كنعانية وفينيقية وأمورية وآرامية وغيرها من الشعوب.

ومنذ فتح الاسكندر في أواخر القرن الرابع قبل المسيح أسست في سوريا عدة مدن يونانية، منها إنطاكية نفسها وافانية واللاذقية والمدن العشر في أنحاء الجولان والبلقاء. وبقي عدد كبير من جنود الاسكندر في سوريا واختلطوا بسكانها، كما قدم إليها موجات متتالية من العناصر اليونانية. وعلاوة على هذه الموجات القادمة من الشمال والغرب تسربت من الشرق والجنوب قبائل عربية لاسيما يمنية ومن ربيعة. فما عدا الأنباط والتدمريين الذين كانت لهم لفترة ما دولتهم، هناك بنو تنوخ وقضاعة وبنو كلب والغساسنة. وكان هؤلاء العرب أغلبية في بعض المدن مثل البطراء وتدمر وبصرى. أما معظمهم فكانوا يقطنون الخيام ويتواردون إلى ضواحي

المدن القريبة من البادية ويمتزجون شيئاً فشيئاً بسكانها. وقد انتشرت المسيحية بين هذه العناصر كلها الـتي كانت تدين أولاً بالوثنية، وبين الفئات اليهودية التي كانت تعيش منعزلة في كبريات المدن[١] .

والسريان في سوريا الذين سماهم خصومهم المسيحيون باليعاقبة هم الفرع الغربي للكنيسة السريانية، كما أن النسطوريين هم الفرع الشرقي للكنيسة السريانية، الأولون كانوا أكثرية في سوريا والنساطرة كانوا الأكثرية في بلاد فارس على ما يقول فيليب حتي (عـــرف القـــائلون بالطبيعة الواحدة في سورية باليعاقبة، ودعاهم بذلك خصومهم اليونان إذ كانوا اتباع يعقـــوب البرادعي أسقف الرها في أواسط القرن السادس. وكان الغســـانيون وســـواهم مـــن العـــرب السوريون قد اعتنقوا هذا المذهب قبل ظهور الإسلام، فكانت الكنيسة المعروفة باليعقوبية هـــي الغالبة في سوريا، بينما كانت المدعوة خطأً بالنسطورية أوسع انتشاراً في فـــارس. أمـــا لغـــة الكنيستين فقد كانت ولا تزال السريانية، على أن اللغة اليونانية كانت تدرس في الأدبار أيضاً. وكانت قنسرين في شمالي سوريا مركزا هاماً لإذاعة تعليم الطبيعة الواحدة وترجمة علوم اليونان. وكان علماء اليعاقبة أقطاب النشاط العلمي وأعلام حركة النقل العلمي في ذلك العهد[٢] .

وما كانت تمضي فترة طويلة على الفتح الإسلامي عند أهل سوريا حتى تم انتقال بطـيء وتدريجي إلى الإسلام. وقد يعسر على المؤرخ أن يتبع أطوار هذا الإسلام التدريجي، وإنما يؤكـد أغلب المؤرخين أن ثلثي المسيحيين في كرسي إنطاكية كانوا من السريان عند الفتح العربي فلـم يبق منهم إلا جماعة قليلة بالنسبة للمجموع العام للمسيحيين، أما الباقي فقد مرقـــوا إلى ديـــن الإسلام. وبعكس ذلك الملكيون فإنهم لا يزالون على نسبة مئوية مرتفعة من حيث العدد.

وكان قد بقي من أتباع الكنيسة السريانية حتى أوائل القرن الثاني عشر نحو مائتي ألـــف نفس في سورية، ومنذ ذلك الحين عصف بهم الاضطهاد والتشريد[٣] .

ويمكن التأكد من ذلك أنه كان هناك ٢٥٠ أسقفية في ذلك الوقت، وفي الخمسينات من القرن العشرين لم يبق إلا نحو عشر أسقفيات ثلث أهلها في العراق. أما كنيسة الروم التي أصابها الاضطهاد والإعنات فقد سَلِم نحو نصف أبنائها.

[١] – ديك، الخوري اغناطيوس: الكنيسة الإنطاكية وسبيلها إلى الوحدة، مجلة المسرة – حريصـــا، الســـنة ٦٧/١٩٨١ ك٢–شباط ص٤١–٤٢.

[٢] – حتي، د.فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الثاني، ترجمة: د.كمال اليـــازجي، دار الثقافـــة – بـــيروت ١٩٨٣، ص١٣٩.

[٣] – عبده، سمير: المسيحيون السوريون قديما وحديثا، دار علاء الدين – دمشق ٢٠٠٠، فصل باب المسيحية الســـورية من الأكثرية إلى الأقلية.

وكانت الأديرة السريانية منتشرة غربي بادية الشام، من اليرموك حتى إقليم حماه، وقد قدم رؤساء الأديرة السريانية تحت إشراف الغساسنة عريضة إلى قادة الكنيسة السريانية سنة ٥٦٩ تحمل أكثر من ١٣٧٠ توقيعاً تمثل نحو ٢٠٠ دير، ما عدا أديرة نجاد القلمون وداخل سورية، وبعضها مزدهر يجذب النفوس المتعطشة إلى حياة النسك والتأمل[١] .

وأكدت بعض المخطوطات السريانية بان السريان الأرثوذكس والسريان الموارنة كانوا يعيشون جنباً إلى جنب بسلام في لبنان وذلك في القرن الخامس عشر، حتى أن هناك قرى لا يسكنها سوى السريان الأرثوذكس مثل حردين[٢] ، علماً أنه لم يبق في لبنان في بدايات القرن العشرين سوى عشرات السريان.

ونقلاً عن هنري لامنس (نعتقد أن عدد المسلمين في آخر القرن الأول الهجري لم يتجاوز مئتي ألف على أربعة ملايين سوري تقريباً. ونستطيع أن نضيف إلى هذا العدد بعض آلاف الحديثي العهد في الإسلام لنحصل على مجموع المسلمين في سورية في تلك الحقبة)[٣] .

إذا كان السريان فقدوا عددهم الكبير خلال مئتي سنة الهجرية الأولى في سوريا، فإن التحفظ تجاه الأرقام يبقى قائماً.

ولقد بقي الريف السوري محافظاً على سريانيته بشكل أو بآخر. وكلنا نعرف أن منطقة القلمون، شمالي دمشق. لم يمض وقت طويل على دخولها الإسلام، ولازالت قرى إسلامية تتكلم السريانية إلى الوقت الحالي. لنذكر من علماء القلمون قبل ألف عام أبو فرج اليبرودي واسمه الأصلي جورجيس بن يوحنا بن سهل بن إبراهيم اليبرودي (١٠٣٥)، من النصارى اليعاقبة، كان فاضلاً في صناعة الطب، عالما بأصولها وفروعها، معدوداً من جملة الأكابر من أهلها والمتميزين من أربابها، دائم الاشتغال، محباً للعلم، مؤثراً للفضيلة. وقد تعلم في دمشق وذهب إلى بغداد وتعلم على ابن الطيب إلى أن مهر في صناعة الطب وصارت له مباحثات جيدة ودراية فاضلة في هذه الصناعة، واشتغل أيضاً بشيء من المنطق والعلوم الحكمية. ثم عاد إلى دمشق وأقام بها. وكانت لليبرودي مراسلات إلى ابن رضوان بمصر وإلى غيره من الأطباء المصريين وله رسائل عدة إليهم ومباحثات دقيقة. توفي اليبرودي بدمشق ودفن في كنيسة اليعاقبة قرب باب توما. من آثاره (مقالة في أن الفرخ أبرد من الفروج) و(نقض كلام ابن الموفقي في مسائل ترددت بينهم

---

[١] – نصرالله، الاسخركوس حوزف: منصور بن سرجون، منشورات المكتبة البولسية – بيروت ١٩٩١ ص٣٦.

[٢] – إبراهيم، المطران يوحنا: السريان في لبنان، صحيفة الديار – بيروت ١٩٩٨/٦/٢٨ ص٧.

[٣] – نصر الله، الاسخركوس حوزف: منصور بن سرجون، مرجع سابق ص٣٧.

في النبض) وكتب بخطه شيئاً كثيراً جداً من كتب الطب، ولا سيما من كتب جالينوس وشروحها وجوامعها [1].

ومن المعروف أن هناك ثلاث قرى قريبة لدمشق معظم أهاليها من المسلمين يتكلمون السريانية إلى يومنا الحالي، والقرى هي: بخعا وجبعدين وأهاليهما من المسلمين الخلص ومعلولا وهي خليط من المسيحيين والمسلمين.

وقد قمت بمسح لمعظم قرى القلمون وتبين لي أن القرى القصية منها لا زال سكانها يتداولون بعض الكلمات السريانية غير العامية السريانية المتداولة في المدن السورية والتي يظنها البعض عربية، كما أن الكثير من العادات والأعياد السريانية لا زال يحتفل بها دون معرفة أصولها السريانية.

ومن بين المدن والقرى المسيحية الصرف أو ذات الغالبية المسيحية نذكر من قرى محافظة الحسكة بسورية: القامشلي، دمخيا الكبرى، دمخيا الصغرى، تل الفارس، تل التوم، الوطوطية، كبابا، طرطبش، سلام عليك، محركان، روتان، غرشامو، تل جيهان، غرشيران، غردوكا، زوافا، ملا عباس، خوتيلا العليا، خوتيلا السفلى، شلهومية، بيان دور، قبور البيض.

وبالقرب من تل علو داخل محافظة الحسكة نذكر بعضاً من أسماء القرى السريانية: حلاعا، طاش، بياضي. وفي منطقة الخابور: تل تمر، تل نصري، تل رمان، تل شاميران، تل سكرا، تل طال، تل ورديات، تل هرمز.

إن السريانية لا تمثل لسكان سوريا لغة كنيسة فحسب ولكنها لغة التراث الفكري والعلمي والأدبي والفني وغيرها كما يظهر جليا من تاريخ الفكر السرياني في العهد المسيحي الأول وبعد الإسلام. وقد ظلت السريانية منافسة لليونانية حتى عندما كانت بلاد ما بين النهرين ولاية رومانية وبيزنطية.

وفي العهد البيزنطي الأول بقيت السريانية اللغة الأم للأغلبية الساحقة لسكان ما بين النهرين، ولاسيما بعد القرن الرابع للميلاد، وحيث انتصرت المسيحية على الوثنية في أغلب مدن وقرى بلاد ما بين النهرين، نبذ المسيحيون اللغة اليونانية، وانفردوا بالسريانية، وقاوموا الكتابات الوثنية ما أمكن، وقاموا بنشاط ديني وفكري لا مثيل له في التاريخ [2].

---

[1] - المعلومات عن البيرودي جمعت من ابن أبي أصيبعة:طبقات الأطباء ج٣ص٢٣٣-٢٣٩ والجابي معجم الأعلام ص١٧٧، وقد ورد التعريف بالبيرودي في مجلة النشرة – عمان العدد ١٢ خريف ١٩٩٩ ص٣٨. ومن النادر أن كتب عن هذا العالم السوري في الوقت الحاضر بالنسبة للدوريات والكتب التي اطلعنا عليها.

[2] - إبراهيم، المطران يوحنا: المجلة البطريركية دمشق السنة ٣٤ كانون الثاني وشباط ١٩٩٦ ص٢٠

أما سكان المدن السورية وخصوصا دمشق فمن النادر أن نرى عائلة من عائلاتها قد مضى على وجودها فيها خمس مئة عام، فآل العظم وقف على ذكرهم في منتصف القرن السابع عشر، وآل التركماني (العظمة) كان جدهم الأعلى موسى تولد ١٦٧٠/٧١ وآل البار ودي وصل جدهم حسن آغا البارودي دمشق قادماً من مصر بين عامي ١٧٩٥ – ١٧٩٨ وآل شمدين في مطلع القرن التاسع عشر، وآل المهايني أصلهم من قرية مهين في النبك. وآل العابد استوطن جدهم الميدان عام ١٧٠٠ وآل الشطي ١٧٦٦ وآل الكزبري ١٦٨٨.

ومن اقدم العائلات سكنا في دمشق آل البكري في القرن الرابع عشر، وآل الغزي ١٣٤٩ وآل المحاسني في القرن الثالث عشر، وآل العمري حيث ينتمي نسبهم إلى عمر بن الخطاب، وآل الحمزاوي وهم من أعرق الأسر الدمشقية في مطلع القرن العاشر وآل اسطواني عام ١١٥٦ حيث قدموا من فلسطين[١] .

سوريا بين
الهوية السريانية واليونانية

كان السريان يمثلون عامة السكان في سوريا مع طبقة من العلماء اللاهوتيين الذين اطلعوا على ثقافة الإغريق وحاولوا نقلها إلى اللغة السريانية فالعربية لاحقاً، حيث كانت اللغة السائدة قبل الفتح اليوناني، كما كانت اللغة الرسمية والدبلوماسية المتداولة في الشرق حتى غزت الإمبراطورية الفارسية نفسها، وتكلم بها اليهود ناسين لغتهم العبرية. وقد كتب بها بعض المقاطع من كتب العهد القديم وإنجيل متى الذي فقد أصله الآرامي مع بعض الاستثناءات.

وبعد فتح الاسكندر اكتسبت سوريا طابعاً يونانياً فتسمت بعض المدن والناس بأسماء يونانية، وانتشرت بعض العادات القادمة من اليونان وأصبحت اللغة اليونانية لغة الدولة ولغة العلوم والثقافة. ولا يخفى أن كتب العهد الجديد باليونانية وأن الأغلبية الساحقة من آباء الكنيسة في سورية وفلسطين كتبوا باليونانية حتى القرن السادس، نذكر منهم القديس اغناطيوس وثاوفيلوس رئيسي أساقفة إنطاكية والقديس يوستينوس النابلسي المدافع عن الإيمان، والمؤرخ اوسابيوس القيصري، والقديس كيرلس الاورشليمي، وابيفانوس ويوحنا الذهبي الفم، والمفسر

---

١ شيلر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ترجمة عمر الملاح، دنيا الملاح مطبعة الجمهورية – دمشق ١٩٩٨

ثاودورس أسقف مصيصة، والمؤرخين ثاودوريطوس وسقراط، وسوزومين وورومانس الحمصي الشاعر المرنم. وكانت اليونانية اللغة الرسمية المتداولة في المجامع المسكونية والإقليمية والمراسلات الكنسية. وأن كتاب دستور المرسل الذي يحوي الطقوس والتشاريع الإنطاكية الأصلية وضع باليونانية. وكانت الصلوات الطقسية والوعظ تقام في المدن اليونانية، وكان هناك من يترجمون إلى السريانية القراءات والوعظ في سبيل الشعب البسيط الذي لا يفقه اليونانية، ونستدل على ذلك من شهادة السائحة الإسبانية اتيريا التي زارت الأماكن المقدسة في أواخر القرن الرابع ووصفت بالتفصيل رحلتها وكيف كانت الصلوات تقام في كنيسة القيامة باليونانية وتترجم القراءات إلى السريانية. وهناك أيضاً شهادة طريفة من المؤرخ ثاودوريطوس في كتابه تاريخ الرهبان، إذ يذكر أن بوبليوس أسس على نهر الفرات في زوغما شمال جرابلس ديراً كانوا يقيمون فيه الصلوات باليونانية، ولما احب أن ينضم إلى الدير فريق من القرويين لا ينطقون إلا بالسريانية أسس لهم ديراً مجاوراً، وكان الفريقان يجتمعان في الكنيسة الواحدة وينشدان المزامير بيتاً باليونانية وبيتاً بالسريانية[1].

وإذا كان من دور للغة اليونانية على بلاد الشام فهو نابع من أن عهد الآرامية الأولى انتهى باستيلاء الاسكندر الكبير على بلاد الشرق وانتشار نفوذ اليونان (٣٣٢-٦٤ق.م) حيث قامت اللغة اليونانية، سيدة الحضارة الهلينية في فرض وجودها حيث الآرامية، مما دفع بهذه الأخيرة إلى الانكفاء والتراجع.غير أن اللغة الآرامية استعادت الكثير من نفوذها في عهد الاحتلال الروماني وخاصة بعد انتشار المسيحية، وقيام هذه اللغة بحمل البشارة المسيحية إلى العالم حيث تكلم بها المسيح. وقد حققت الآرامية السريانية نجاحاً كبيراً في أدبها الجديد، نثراً ونظماً، في هذه المرحلة المسيحية التي تميزت بكثرة كتابها ومؤلفيها ووفرة مؤلفاتهم وغزارة نتاجهم الذي جاء في معظمه مسيحي النشأة كنسي المصدر مكتفياً بأمور لاهوتية وطقسية وشؤون جدلية ونقلية (ترجمة). وقد ساهم الشعر الآرامي بدوره الكنسي أيضاً في ترسيخ التعاليم الدينية في عقل الشعب وذلك بإضفاء حلة من الخشوع على فروض الصلاة عن طريق الإيقاع واللحن، حتى عدت هذه الحقبة بالعصر الذهبي للأدب السرياني. وقد نبغ في هذه المرحلة كتاب وأدباء وعلماء كبار منهم برديصان (٢٥٢) ومار أفرام السرياني (٣٧٣) ونرساي الكبير ويعقوب السروجي وغيرهم[2].

[1] ديك، الخوري اغناطيوس: الكنيسة الإنطاكية وسبيلها إلى الوحدة مرجع سابق ص٢ و ٤٣

[2] ملكي، د. كابي: اللغة الآرامية السريانية وأهميتها مجلة آرام — ستوكهولم العددان الثامن والتاسع شتاء ١٩٩٤—صيف ١٩٩٥ ص١٩٠

http://www.al-maktabeh.com

بقيت اللغة اليونانية شائعة في سورية إلى سنة ٦٤ق.م حيث تحققت الغلبة للرومان فأصبحت اللاتينية لغة الموظفين والقانون، لكن اليونانية كانت قد تجذرت في الثقافة والآداب والفنون فلم تقو اللاتينية عليها ولا سعى الرومان إلى تغيير معالم الحضارة في هذه البلاد. و "منذ انقسام الإمبراطورية في زمن قسطنطين الكبير إلى شطرين: شرقي وغربي وتكريس ذلك بوفاة ثيودوسيوس سنة ٣٩٥م أخذت اللاتينية رغم استمرارها، في مجال الإدارة والقانون لبعض الوقت، في التراجع أمام اليونانية. شرعة ثيودوسيوس في القرن الثاني إلى أواسط القرن السادس، علمت باللاتينية، ثم بعد يوستنيانوس (٥٢٧ – ٥٦٥م) سادت اليونانية و لم تعد للاتينية في الشرق أرضية مؤثرة)[١] .

والثقافة الهلينية التي طرأت على سوريا منذ فتحها الاسكندر لم تكن قد غيرت طبيعة السكان، بل لعلها لم تتعد في تأثيرها نطاق المظاهر الخارجية. ولم تفش هذه الحضارة اليونانية إلا سكان المدن، حيث حافظ سكان الأرياف على ثقافتهم الوطنية واختلافاتهم الطائفية التي فصلتهم عن أسيادهم الأجانب. وزادت النعرات الطائفية في مدى هذا التنافر بين سكان البلاد وهم ساميون وحكامهم الدخلاء وهم يونان. فالكنيسة السورية السريانية آمنت أن للمسيح طبيعة واحدة لا طبيعتين (إلهية وبشرية) كما ارتأى المجمع الخلقيدوني (٤٥١) الذي أقرته كنيسة بيزنطة اليونانية. وسعى هرقل سنة ٦٣٨ إلى تسوية الخلاف الناشب فأصدر صيغة جديدة للإيمان كان قد ابتدعها سرجيوس (السرياني) بطريرك القسطنطينية أراد بها أن يحول الأنظار عن مسألة الطبيعة الواحدة والطبيعتين ويوجهها إلى أن للمسيح مشيئة واحدة، ومن هنا نشأ اسم شيعة مسيحية جديدة هي (المونوثيلية) أي القائلة بمشيئة واحدة للمسيح. ولم يلق هذا المسعى إلا الإخفاق شان كل مسعى يقصد به التوفيق بين عقائد الإيمان المتنافرة فلم يرض به دعاة كنيسة بيزنطة ولا أقره المنشقون بل أدى إلى ظهور طغمة جديدة كونت حزباً ثالثاً. إلا أن كثرة السكان في سورية احتفظت بعقيدتها المونوفيزية – السريانية – (طبيعة واحدة). ولا جدال في أن وراء النزعة الدينية التي حسنت لهؤلاء التعلق بكنيسة سورية المستقلة الشعور الوطني القائل بوجوب التمييز عن البيزنطيين الأغراب[٢] .

وما قام به هرقل هو أنه حاول أن يشق الكنيسة السورية بعد هزيمته في دمشق والمدن السورية مستعملا الدعوة الدينية في ذلك ولكنه فشل.

١ بيطار، الارشمندريت توما: اللغة السريانية في تراث الكنيسة الأرثوذكسية، نقلا عن كوورلفسكي: الليتورجيا بلغة حية، صدر بالفرنسية عام ١٩٠٥، مجلة الحكمة – القدس العدد الأول السنة ١٩٩٧/١٢ ص٣٩ و٤٠.

٢ – حتي، د. فيليب: تاريخ العرب، مرجع سابق ص٢٠٩.

وجدير بالذكر أن الكنيستين السريانيتين: الشرقية والغربية، مع كل ما كان لهما من رغبة في علوم اليونان، إنما نشأتا وتوسعتا بعامل الردة التي أثارت المجتمع السوري ضد المحاولات التي قامت بها بيزنطة وروما لصبغهما بالصبغة اليونانية. ولما كانت هاتان العاصمتان المسيحيتان قد عمدتا إلى اعتبار التعليم اليعقوبي والتعليم النسطوري ضرباً من الهرطقة، فقد كان قيامهما في الأصل احتجاجا على التدخل الخارجي في شؤونهما الأهلية، وتنكراً لعملية التوفيق التي استهدفت تحويل المسيحية، وهي دين سوري، إلى منظمة رومانية[1].

نستدل مما ذكرناه أنه رغم كون لغة الدولة والجيش الروماني كانت اللاتينية حتى زمن يوستينيانوس، واليونانية أضحت لغة العلم والثقافة حيث كان المثقفون يكتبون بهذه اللغة، فإن كل ذلك لا يعطي مبررا أن الشعب كان يونانيا لأن اللغة اليونانية كانت أكثر شيوعا في الكتابة. فالشعب بنوع عام بقي متمسكا باللغة السريانية لأنها لغته الوطنية، وهو ما نلمسه أكثر فاكثر إذا ابتعدنا عن الطبقة المثقفة التي كانت تجيد اليونانية لخدمة الدولة. وقد بقيت اللغة السريانية، على مدى تسعة قرون من الزمن لم تتوار أمام اللغة اليونانية ولا انصهرت بها، بقيت هناك في نسيج البلاد السورية وتداول الناس. وقد أثبتت الأحداث الإيمانية والسياسية الطارئة، منذ القرن الخامس وإلى ما بعد القرن السابع للميلاد أن اللغة السريانية كانت ما تزال تحتفظ بدينامية مرموقة، فيما تراجعت اليونانية إلى أن تلاشت بعدئذ في هذه المنطقة.

ولاحقاً، وبفضل الانتصارات العربية و(الإسلامية) انتصرت اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة ، وتبين أن الشعوب تؤثر التخلي عن كيانها السياسي بل عن ديانتها القومية إذا اقتضى الأمر قبل أن تتخلى عن لغتها[2].

من هم مسيحيو سوريا

كانت التركيبة السكانية في بلاد الشام أبان الفتح العربي – الإسلامي لها تتألف من أكثرية مسيحية، وأقلية من اليهود. أما المسيحيون فقد برزت ملامحهم في ذلك الزمان على الشكل التالي:

---

١ - حتي، د. فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الثاني، ترجمة: د.كمال اليازجي، دار الثقافة- بيروت١٩٨٣ ص١٣٩ نقلا عن توينبي.

٢ حتي، د. فيليب: تاريخ العرب مرجع سابق ص٤٣٠

فئة يونانية، تكونت بفعل الوجود اليوناني في المنطقة لمئات السنين وقد حافظت على لغتها.
فئة محلية، أصبحت يونانية محافظة، في آن واحد، على لغتها الأصلية ومخزونها التراثي، قليلاً أو كثيراً.
فئة محلية أصيلة الجذور، وهم السريان، سكان سوريا الأصليون.

إن الفئة الأولى والثانية اندمجتا في طائفة واحدة وهي الروم، وتعني جمع لمفرد (رومـــي)[*]. وتشير في القرآن الكريم إلى جماعة بيزنطية، أي المنتمين إلى دولة روما الجديدة.

ويذهب أحد الباحثين إلى أن ((الروم في سوريا هم اليونان وعرفوا عند العرب "بامـــة اليونان أو الروم الشرقيين" ودعوا ملكيين لكونهم على مذهب قيصر الروم ويختلفون عندهم عن باقي الأمم التي في مصر وسوريا والعراق والشام من العرب المتنصـــرة والأقبـــاط والســـريان والنساطرة، ومن ثم كانت لغتهم اليونانية وأن تكلم غيرهم بغير اليونانية في بعـــض الأمـــاكن المعتزلة التي لم يدخلها اليونان ولا آدابهم وتمدنهم))[1].

ويرى الخوري قسطنطين الباشا تأييد في كلامه السابق ذكره في مسألة الخـــلاف بـــين الأساقفة اليونان والأساقفة السوريين المحليين في شأن أزمـــة البطريركيـــة الإنطاكيـــة للـــروم الأرثوذكس حيث فسر ما حدث بأنه مسألة سياسية من حيث أن بطريرك القسطنطينية أراد أن تكون له اليد الطولى في اختيار البطريرك الإنطاكي. كما استخلص أن موقف الأساقفة اليونـــان ينم عن غيرة عرقية على الملكيين الإنطاكيين وخشية عليهم، إضافة إلى انهم يحسبون من لا يحسن اليونانية غير قادر على حمل أعباء الأسقفية والبطريركية حسنا[2].

وفي كتاب الحقائق الجلية في تاريخ العشيرة الصليبية لجامعه ومؤلفه نجيب داود الصليـــي يذكر الكاتب ((أن بترونيوس، الملقب اميريس، هو الجد الأول للعشيرة الصليبية، وقد قال عن نفسه أنه اعتنق النصرانية سنة ٦٧ مسيحية على يد البار يوحنا، تلميـــذ بولـــس الرســـول.. أما اميريس الملقب بالحكيم العادل فكـــان ملكـــا علـــى القدمونيـــين الهيلانيـــين (اليونـــان) أسـياد إسبارطة وتوابعها))[3].

وإذا كان الأمر كذلك فأين نضع الكنيسة البيزنطية من الهوية الوطنية لسوريا؟

---

[*] – نسبة إلى روما، وكلمة ملكيين تعود أيضا نسبة إلى الملوك البيزنطيين الذين كانوا يرعون عســكريا انعقـــاد المجـــامع المسكونية ومقرراتها بالإضافة إلى اللغة اليونانية المعتمدة في الطقس البيزنطي وهي كذلك لغة أوربية غربية.

[1] – الباشا المخلصي، الخوري قسطنطين: بحث انتقادي في أصل الروم الملكيين ولغتهم القاهرة ١٩٠٠ ص٧٦

[2] – الباشا المخلصي، الخوري قسطنطين: مرجع سابق ص١٩

[3] – الصليبي، نجيب داود: الحقائق الجلية في تاريخ العشيرة الصليبية بيروت ١٩٥٠ ص٨

عن ذلك قرأنا: الفرق بين الآرامية والبيزنطية هو أن الآرامية هي هوية قومية للشـــعوب المسيحية التي كانت خاضعة للحكم البيزنطي، وان البيزنطية هي حكم إمـــبراطوري بـــيزنطي (نسبة لمدينة بيزنطية) تقلص فيما بعد ليصبح هوية طقسية كنسية بلغة أوروبية يونانية[1].

وحين نعتبر طائفتي الروم الكاثوليك والروم الأرثوذكس ركناً من أركان المجموعـــات المكونة للهوية الآرامية، فإننا لا نتعرض في ذلك إلى انتمائهم الكنسي البيزنطي التي لا تتعدى في هويتها حدود الممارسات الطقسية الدينية والليتورجية. إذ ليس من هوية قومية بيزنطية، كمـــا ليس من هوية قومية لاتينية أو بروتستانتية. فالمؤمنون بالعقيدة البروتستانتية في سوريا الطبيعيـة، هم سريانيون – آراميون في هويتهم القومية، و بروتستانتيون في هويتهم الدينيـــة العقائديـــة، وكذلك أبناء الطائفة اللاتينية (باستثناء أفراد ممن هم من أصل أوربي) فهم سريانيون – آراميون في هويتهم القومية، ولاتينيون في طقسهم الكنسي ليس إلا. وكذلك الأمر في ما يخص اتبـــاع الكنائس السريانية الهندية المتمركزة في جنوب الهند، فهؤلاء سريانيو اللسان ليتورجيـــا بحكـــم تبنيهم للطقس السرياني الإنطاكي، وهنديو الهوية بحكم انتمائهم للشعب الهندي عرقاً وحضارةً[2].

وهذا الميل إلى اعتماد العادات المتبعة في القسطنطينية دكته انشقاقات القرنين الخـــامس والسابع الميلاديين في الكرسي الإنطاكي، والرغبة في التمايز عن كنائس الأمر الواقع التي كان لها والكنيسة الأرثوذكسية في هذه الديار، تراث ليتورجي واحد. ولأجل المفارقة حدث ذلـــك في وقت تعرضت البلاد لتغيرات سياسية عسكرية أساسية. فالفتح العربي الإسلامي وما نتج عنه من عداء بين العرب والبيزنطيين، وما أثرت فيه الأوضاع الجديدة على علاقات أهل القســـطنطينية بالملكيين، اعني حالة التحفظ والمداراة التي ذهبت أحياناً إلى حد الاستقلالية من جانب هـــؤلاء عن أولئك، وحالة البرودة والشك التي ذهبت أحياناً إلى حد التخوين من جانب أولئك حيـــال هؤلاء.. كل هذا أبطأ أو ربما جمد حركة التفاعل الليتورجي بين الملكيين هنا والقسطنطينية هناك[3].

وينقل الارشمندريت بيطار عن س. شـــارون في كتابـــه عـــن الطقـــس البـــيزنطي في البطريركيات الملكية، على الملكيين الكاثوليك قولهم بالعبادة باليونانية والعربية دون الســـريانية. شارون يطال هنا الطرف الملكي الكاثوليكي في جدل مطلع القرن، دونك ما يرد على لسانه في هذا الصدد (..انه لأمر يكاد يكون مجهولاً بعامة، عند ملكيـــي ســـوريا أن آبـــاءهم صلـــوا

١- شمعون، د. عماد: مجلة ارام ستوكهولم – السويد عدد ١٠ – ١١ – ١٢ /١٩٩٦ ص٢٣٧

٢- شمعون، د. عماد :مجلة آرام مصدر سابق ص٢٣٩

٣- بيطار، الاشمندريت توما مجلة الحكمة ـــ القدس، العددان الثاني والثالث السنة ١٢/١٩٩٧ ص٢٠

http://www.al-maktabeh.com

بالسريانية، ولعدة قرون. وأن كثرة منهم شغفها اليونانيون وهم لا يعرفونهم على حقيقتهم — أتكلم عن غير الكاثوليك الذين يبدو أنهم نسوا ما عانى منه شعبهم من البطاركة الهلينيين غير الكاثوليك الدخلاء على كرسي إنطاكية وأورشليم، إلى منتصف القرن الماضي — وهم يدافعون عن الأطروحة أن اللغة السريانية هي حصة السريان اليعاقبة الموارنة وأنهم، الملكيين، لم يكفوا عن الصلاة باليونانية إلا ليتحولوا إلى العربية كما هو حالهم اليوم)[1].

أوردنا ما ذكرناه من مصادر متنوعة حتى نعطي فكرة عما تعرضت له هذه الكنيسة العظيمة من جهل بتاريخها وهي التي أثبتت الأيام أنها كانت المدافعة الأولى عن المسيحية السورية خلال قرون عديدة، وكان لإعلامها الفضل في إيحاء فكرة القومية العربية من القرن التاسع عشر.

إن عدم الفصل بين (روم) سوريا و(روم) بيزنطية أوقع الكثير من الضرر على أبناء هذه الطائفة والطوائف المسيحية الأخرى. "وعندما احتل العرب المسلمون الممتلكات الآسيوية والإفريقية من إمبراطورية بيزنطة عرفوا المسيحيين ذوي الجنسية البيزنطية بأنهم (روم). ونتج من ذلك أن المسلمين لا يزالون يعتبرون معتنقي الدين المسيحي في العالم العربي كأنهم مواطنون في إمبراطورية أخرى لا في الدول الإسلامية برغم وجود المسيحيين العرب أمثال الغسانيين والآراميين، ومسيحيي الكنائس السريانية. ويبلغ شك المسلمين في المسيحيين ذروته في بعض الفترات التاريخية خلال الهجمات البيزنطية بين القرن الثامن والحادي عشر. ويزداد الشك في وطنية المسيحيين يومئذ كلما اتصلت كنائس المنطقة بأخواتها الكنائس الواقعة جغرافياً خارج حدود العالم الإسلامي"[2].

ويذكر محمد كرد علي أنه حين أرادت الدولة أن تنتقم من نصارى الشام بل من النصارى في أنحاء المملكة لثورة اليونان عليها ومطالبتها بالاستقلال يوم ثورة المورة (١٢٤٤هـ) وجزائر البحر المتوسط، فأمرت والي دمشق أن يقتل المفسدين من كبراء طائفة الروم، فعقد مجلساً من أعيان دمشق وتلا أمر الأستانة على مسامعهم، فكان جوابهم أنه لا يوجد من النصارى عندنا المفسدون وجميعهم ذميون سالكون بشروط الذمة فلا يجوز أذيتهم. لهم مالنا وعليهم ما علينا، وأن الرسول عليه السلام أوصى بالذميين وقال: من أذى ذمياً كنت خصمه يوم القيامة ونحن لا نقدر أن نتحمل هذه التبعة، وكتبوا محضراً للدولة بحسن سلوك النصارى الايالة وطاعتهم ودفعهم المرتبات الأميرية وأنهم يستحقون حسن الرعاية والمرحمة من السلطنة

---

[1] – بيطار الارشمندريت توما مجلة الحكمة، العددان الثاني والثالث السنة ١٢/١٩٩٧ ص١١ مصدر سابق
[2] – كوربون، جان: مجلة المسرة — حريصا، السنة ٦٦/١٩٨٠ تموز — تشرين الأول.

السنية. ويتساءل كرد علي في النهاية: لعمري أي علاقة للثائرين في حزائر البحر والمورة مع الآمنين من الرعايا في الشام، فقد أبان عقلاء دمشق إذ ذاك عن رأي سديد، ولكن لا ندري إذا كان رأيهم راق لدى ولاة الأمر في الأستانة[1].

اللغة التي جمعت المسيحيين والمسلمين

في الكتابات الكاثوليكية النابعة من هذه المنطقة أكثر من إشارة إلى معاملة المسلمين للسريان بصورة ودية في الأيام والسنوات التي تلت فتح بلاد الشام أمام العرب المسلمين.

ومن الملاحظ في المصادر التاريخية – العربية والإسلامية – القديمة والحديثة منها هذا الاحترام المتبادل بين المسلمين والسريان. أن الواقدي في كتابه (فتوح الشام) لا يذكر سوى الأعداء الروم المتربصين في المدن، وهو يقصد اتباع الإمبراطورية البيزنطية.

لاشك أن من يقرأ هذا الكتاب سيرى أن الفتح العربي – الإسلامي لم يكن لبلاد كالصين ليس لها من رابطة مع شعوب هذه المنطقة، فإن العلاقات ما بين سوريا والحجاز كانت قائمة حتى أنه كانت تسكن هنا عشائر عربية مسيحية وفي الحجاز كذلك لها صلة الرحم.

لقد مر معنا أن عدد السريان كان الأكثر في سوريا حين دخل العرب المسلمون إليها، فيما أضحى عددهم بعد ثلاثة قرون الأقل عددا بعد المسلمين والروم. أي أن عددهم نقص في هذه السنوات عدة ملايين، فأين ذهبوا ؟

من المعلوم أن القبائل السريانية كانت أولى القبائل التي انضوت تحت راية الإسلام، حيث التقى شقي القبيلة في مكان واحد. كما أن المسيحيين والسريان منهم رأوا في الدعوة الإسلامية دعوة سماوية لا يجب مقاومتها، ولغتها العربية أقرب اللغات إلى اللسان السرياني.

إن حميمية العلاقة التي قامت بين المسيحيين والمسلمين في العهدين الأموي والعباسي ـــ باستثناء بعض الشواذات ـــ هي من العمق بحيث أن اقرب لغة كانت إلى العربية والإسلام هي اللغة السريانية التي ذكرت في معظم المراجع الإسلامية الكلاسيكية[2].

---

١ – كرد علي، محمد: خطط الشام، الجزء الثالث ص٣٨ و٣٩، ستة أجزاء في ثلاثة مجلدات، مكتبة النوري – دمشق١٩٨٣، ط٣.

٢ – على سبيل المثال راجع: أبي عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي: الهداية الكبرى، الطبعة الأولى ١٩٨٦، بدون ذكر مكان ودار النشر ص٣٥٦ و٣٩٤.

ولا يمكن المرور على الاضطهاد الذي تعرض له السريان من قبل بيزنطية نظراً لتشبثهم بعقيدهم المخالفة لعقيدة بيزنطية، وهو ما جعل من السريان يتوقون للتخلص من الحكم الأجنبي لهذه البلاد، وان كانت تجمعهم المسيحية الواحدة، وهذا يعطي مدلولاً وطنياً لا طائفياً في مجمل علاقاتهم التالية، وهم الذين حافظوا على الهوية السورية عبر لغتهم السريانية التي جمعت بين المسلمين والمسيحيين في هذه المنطقة.

والروابط في هذه العلاقات كبيرة وهامة نذكر أنه في الوقت الذي كان للغة الآرامية الغلبة والانتشار، أثرت تلك اللغة الآرامية في اللغة العربية تأثيراً عظيماً. وكلما أمعنا في الفحص والاستقصاء، اتضح لنا أن كثيراً من الكلمات العربية التي كانت تستعمل للتعبير عن الأفكار والمواد التي تدل على درجة معينة من المدنية استعيرت من اللغة الآرامية ومن هذا نستنبط أن العرب شعروا بالمدنية التي كانت لجيرانهم الآراميين في الشمال وانهم تأثروا بها[١].

كما أن من تأثير السريانية في اللغة العربية قاعدة حذف الألف إذا جاءت مد في حشو الكلمة، وهذه القاعدة مطردة في اللغة السريانية حيث دخلت العربية ومازالت واردة في مصاحف القرآن الكريم حتى يومنا هذا، حيث تحذف الألف ولا تكتب عبر الشواهد التالية: بسم الله الرحمن الرحيم.

وكذلك في كثير من الأسماء منها إبراهيم: إبراهيم، إسرائيل: إسرائيل، إسماعيل: اسمعيل، الخاسرون: الخسرون، الملائكة: الملئكة.

أما الأرقام المستعملة عندنا بالعربية وهي هندية الأصل فقد وصلت إلى العرب على يد الفيلسوف السرياني وعالم الرياضيات الشهير (ساويرا سابوخت) عام ٦٦٧[٢].

وحتى رجال الدين السريان كانوا ممن أجاد العربية في بداية انطلاقتها، وهؤلاء الأحبار من بطاركة وأساقفة، وعلماؤهم كانوا يحسنون التحدث والتفاهم باللغة العربية قبل وبعد الفتح العربي، سيما المطارنة الذين كانوا يتولون رعاية الابرشيات العربية، أمثال مارجرجس أسقف العرب ٧٢٥ + مطران بني طي وعقيل وتنوخ، ويعقوب أسقف عانة ٨٦٠ + أسقف التغلبة. ويوحنا مطران بصرى ٦٥٠+ مطران بلاد العرب وغيرهم. أما البطاركة فلابد أن أكثرهم كانوا يحسنون التحدث بها، وإلا فكيف كان يتسنى لهم مقابلة الخلفاء الأمويين والعباسيين وطرح مشاكلهم أمثال مارديونيسيوس التلمحري البطريرك ٨٤٥ + الذي قابل المأمون العباسي

١ – الابراشي، محمد عطية: لغة العرب وكيف ننهض بها، طبع مصر ١٩٤٧ ص١١٤ و١١٥.
٢ – برصوم، البطريرك افرام: اللؤلؤ المنثور، مطبعة الاديب – دمشق ١٩٨٧، الطبعة الخامسة ص٢٨٣ و٢٨٥.

في بغداد ثلاثاً، والمعتصم مرة. ونهض بمهمة سياسية انتدبه إليها المأمون ؟ أما ما ذكـــره مـــار جرجس أسقف العرب ٧٢٥ + في إحدى رسائله أنه لا يعرف سوى اللسان السرياني، فـــهو يعني بذلك أنه يجهل اليوناني. وإنما أراد هاتين اللغتين اللتين كان يحذقهما الأئمة لدرس العلـــوم الفلسفية واللاهوتية، ولكن هذا لا يعني أنه كان يجهل العربية، لأنه لا يلي العرب من يجهل لسانهم [1] .

والثقافة اليونانية التي كانت منتشرة في العراق والشام والإسكندرية في العصر الأمـــوي بشكل كبير، انتشرت المدارس فيها على يد السريانيين، وقد أصبحت هذه المـــدارس وهـــذه التعاليم تحت حكم المسلمين، وامتزج هؤلاء المحكومون بالحاكمين على الشرح والتفسير، فكان من نتائج هذا أن تشعّت هذه التعاليم في المملكة الإسلامية، وتزاوجت العقول المختلفة.

أبجدية الوحدة

بين السريانية والعربية تزاوج لا تتسع صفحات كتاب واحد للتحدث عنه، هناك رمـــز دال يمنع ناطقيهم القدرة على التأمل في ردود أفعالهم وللاستعداد لها في خيالهم. والرموز تمكننـا من أن ننأى قليلاً عن الأشياء الموجودة في العالم وأن نجري عليها التجارب في فكرنا، وهو مـــا يحدث كلما أزمعنا القيام بشيء ما. ووجود اللغة هو الذي يمكننا من الابتعـــاد والتفكـــير ثم الاختيار. (والتفاعلية الرمزية هي أقدم التقاليد النظرية القائمة في علم الاجتماع المهتمة بدراســة التفاعلات الاجتماعية اليومية) [2]

وحين يتحدث سرياني إلى عربي، كل بلغته، فإن الكثير من الكلمـــات والمصطلحـــات متداخلة ومتقاربة مع بعضها البعض، وهذا عامل نفسي كبير في تقاربهما مع بعضهما البعـــض، حتى أن إيماءات الكلمات توحي بنفس الشيء إليهما، وهو ما سهل عملية انتشار العربية علـــى حساب السريانية فأصبح هناك خليط من الكلمات والمعاني والمثل المشتركة تناولناها في كتبنـــا عن السريانية.

وهناك تعبير يستعمله علماء اللغة يسمى (الفائض)، ويعني أنه في كل جملـــة ينطقـــها الإنسان فائضاً، بمعنى أن من الممكن حذف بعض أجزاء الكلمات أو بعض الكلمات الكاملة من

[1] – ساكا، المطران اسحق: كنيستي السريانية، مطابع ألف باء – دمشق ١٨٨٥ ص٩٠ مرجع سابق.
[2] – كريب، ايان: النظرية الاجتماعية، ترجمة: د.محمد حسين غلوم، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٤٤ ص١٤٧.

الجملة دون أن يعطل ذلك مقدرة المستمع على فهم الرسالة التي تحملها تلك الجملة. وهذا الأمر يبدو واضحاً لنا إذا تذكرنا أمرين: أولهما اللغة التي نستعملها في البرقيات والتي نحاول أن نحذف منها أكبر عدد من المفردات التي لا تؤثر تأثيراً مباشراً على مدى فهم الرسالة. والأمر الثاني هو مقدرتنا على فهم إذاعات المذياع وأحاديث الهاتف والأحاديث المشابهة لذلك التي تتم في وسط ضجيج كضجيج المصانع أو حركة سير العربات في الشوارع المزدحمة.

وفكرة الفائض هذه تعتمد على نظرية الاحتمال عند تطبيقها على الجملة، وبوجه خاص على احتمال وقوع كلمة في سياق لغوي معين. فإذا عرفنا الكلمات القليلة الأولى من جملة معينة أصبح بإمكاننا أن نخمن الكلمة التي يمكن أن تتلو كل كلمة سابقة بعد ذلك، مع وجود احتمال – يختلف مقداره من حالة إلى أخرى – بأن يكون تخميننا صحيحاً، وهذه النظرية نظرية رياضية طبقها العلماء على اللغة وأوجدوا لها الحسابات الدقيقة. ولكن ما لابد من ذكره هنا أن هناك علاقة وثيقة بين الفائض والفهم، فكلما زادت نسبة الفائض في الكلام سهل الفهم على السامع وزاد مقدار ما يفهمه من الكلام، والعكس صحيح أيضاً[١].

وخاصية الفائض نجدها مشتركة كثيراً بين السريانية والعربية مما يعزز القول أن قدوم العرب المسلمين إلى هذه المنطقة قد ساعدهم في اندماجهم هنا، هذا الرابط الذي لا يمكن التقليل من شأنه في إقامة علاقات طويلة بين شعبين.

ضعف السريان والسوريون وأُغلق الشرق على نفسه من القرن الثالث عشر الميلادي إلى نهاية القرن الثامن عشر تقريباً، فلم يتصل بالغرب إلا اتصالاً عدائياً حربياً في الحروب الصليبية، أو اتصالاً ضعيفاً، أما اتصالاً ثقافياً علمياً فلا، ولهذا لما بدأ الغرب في القرن الخامس عشر والسابع عشر يضع أساس نهضته في العلوم والفنون والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك مما غيّر وجه حياته تغييراً تاماً لم يصل إلى الشرق شيء منها، ولم يشعر بها، واستمر في دائرته المغلقة يقلد حياة الشرق الأولى من غير روح[٢].

وما أن استهل القرن الثالث عشر وإذن العصر العباسي بالزوال، حتى كان النصر قد تم للعربية على اللغة المحلية، وغدت هي أداة التفاهم في الحياة اليومية. إنما بقيت هنالك (جزر لغوية) لأقوام غير مسلمين، نظير اليعاقبة والنساطرة والموارنة، وقد كان في عهد الصليبيين كثير من مثل هذه (الجزر). وعندما زار بنيامين التودلي جبل سينا حوالي سنة ١١٧٠ وجد على قمته

---

١ – خرما، د. نايف: أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم٩ ص٢٨.
٢ – أمين، أحمد: قصة الادب في العالم، الجزء الثاني، القاهرة ص٤٦٠.

معبداً سريانياً، وعند سفحه قرية كان أهلها يتكلمون (اللغة الكلدانية). وفي لبنـــان المـــاروني دافعت اللغة السريانية المحلية دفاعا مريراً وطويلاً وصمدت في دفاعها حتى القرن السابع عشر[١] .

لا يأتي دفاعنا عن السريانية من فراغ، فها هي اللغة الجامعة بـــين المســـيحي والمســـلم السوري في مواطنية واحدة دليل هوية كانت قائمة منذ مئات السنين ولا زالت بقاياها موجودة رغم الضربات التي وجهت لها، دون مراعاة قدمها التاريخي ودلالة ذلك في تسمية هذه البـــلاد باسمها، و لم تكن لتريد أكثر من العناية التي نوليها لاوابدنا، عناية لا تكلفنا شيئا، سوى الالتفات إلى هذه اللغة ومساعدتها لتبقى شاهدة على تاريخ سوري عريق يمتد إلى آلاف السنين.

إن السوريين أهملوا ويهملون تراثهم الفكري بسبب جهلهم لهذا التراث الغني، أو بسبب أن البعض منهم يتنكر له بدافع سياسي، ذلك أنه في الماضي كانت المجتمعات متباعدة، بـــل أن بعضها كان معزولاً، وفي السابق كان من الممكن لبعض المجتمعات أن تستمر في عزلتها وتعيش لذاتها وبذاتها.

ومازالت رواسب الماضي قائمة ومفاهيم ناقصة أو مغلوطة عالقة في الأذهان، ونحن جميعاً بحاجة إلى أن نتجدد ونوسع مفاهيمنا لنعود إلى أصولنا ووحدتنا فنتمكن من القيام برســـالتنا الواحدة في عالم اليوم والمجتمع الواحد الذي نعيش فيه.

إن الحضارة العربية من منحى علمي، هي كل ما أبدعه العرب في شـــتى الحقـــول دون تمييز، في الدين والجغرافيا والأصل، وهذه كلها تستوعبها. ودرس الفكر السرياني درساً علميـــاً فيه خدمة للحضارة العربية والإسلامية والإنسانية، ومن أولى السوريين في هذه البلاد بـــدرس تراثهم وتحقيقه؟

ويبقى التأثير المسيحي المشرقي هو مما يشارك في جعل الأقطار العربية ذات نكهة خاصة، ومع ضمور هذا التأثير فإن الإسلام العربي ينحو إلى أن يأخذ النمط الأصولي وبذا ينهار الجـــذر القاعدي للأمة.

وها نحن نحاول بأكثر ما يمكن من موضوعية وحياد أن نوضح الأمور لنتبين هوية الشعب السوري ونستجلي الطريق المفتوح أمامنا لبلوغ الهدف.

http://www.al-maktabeh.com

١ – حتي، د. فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، تاجزء الثاني ص١٧٢.

المسيحيون والحكم الأموي

لا يزال حكم الأمويين لدى المسيحيين حلماً مستعذباً وعطراً نادراً فواحاً مجلبباً بالفن والثقافة.

فعندما حاصر خالد بن الوليد دمشق، كانت الأحوال في فوضى عارمة حيث خرج البيزنطيون من حرب ضروس ضد الفرس، في الظاهر كانوا منتصرين، ولكنهم لم يأخذوا أنفاسهم للتطورات الحاصلة. في المقابل ولعله الأمر الهام في الموضوع بعد القوة العسكرية هو أن أقاليم سوريا وفلسطين المستعادة تقطنها نسبة كبيرة من السريان، حيث يذكر أحمد أمين "إنه حين الفتح الإسلامي لسورية كان يسكن هذه البلاد السوريون — السريان، أهل البلاد، وبعض (الروم) والأرمن واليهود وبعض قبائل عربية منها غسان وقضاعة ولخم وغيرها، وكانت لغتهم مزيجاً من السريانية والعربية"[1]. هؤلاء السريان كانوا مستائين كل الاستياء من الحكم المركزي ومتشوقين لقبول أي نظام كان ينقذهم من الجور اليوناني الممقوت وظلم بيزنطة. وكانوا مستعدين لاستقبال العرب كما استقبلوا الفرس من قبل استقبال المنقذين.

لقد يسر الفتح للعرب أسباب منها أن فارس وبيزنطة كانت قد وهنتا بسبب الحرب بينهما، أجيالاً طوالاً، فاضطرتهما هذه الحرب إلى إرهاق رعاياهما بضرائب قاسية أدت إلى نفورهم. ناهيك بان استيطان القبائل العربية في سورية وأرض الفراتين وفي المناطق الواقعة على حدود الهلال الخصيب وظهور الشقاق في جسم الكنيسة المسيحية الشرقية حيث نشأت

١ – أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي — بيروت ١٩٧٥ ص٦٩.

المونوفيزية* في سورية ومصر، والنسطورية** في العراق وفارس، مع ما لابس ذلك من عـــداوة بيزنطة واضطهادها للمنشقين عن كنيستها، جميع هذه الأمور سهلت عمل الفاتحين.

وحين هزم البيزنطيون أمام قوات خالد بن الوليد كانت هزيمتهم كاملة كاسحة، حتى أن هرقل صاح وهو في إنطاكية ينتظر نتيجة المعركة (وداعاً سورية إقليمي الجميل، لقد أصبحـــت للعدو)، أما خالد بن الوليد فقال (سوريا تشبه جملاً راقداً مرتاحاً) نقلاً عن ابن البطريق.

المسيحية وفتح دمشق

بعد أن انتشرت الديانة المسيحية في اليهودية والسامرة والجليل والمدن العشر، دخلت إلى دمشق بواسطة حنانيا الرسول[٢]، وقد سهلت لها دخولها العلاقات التجارية بين هـــذه المنـــاطق وبلاد الشام. ولما توارد اليهود بكثرة إلى دمشق، لعظم غناها واتســـاع تجارتهـــا، في أعقـــاب الاستيلاء الروماني على بلاد فلسطين واحتلالهم لها بعد فتحها علـــى يـــد القـــائد بومبيـــوس (٦٦ق.م)، انتشرت المسيحية بين اليهود أيضاً في دمشق انتشاراً سريعاً مذهلاً مما حمل يـــهود القدس أن يهلعوا ويذعروا من تلك الظاهرة الجديدة والغريبة معاً. فأرسل رؤساؤهم معتمدهـــم شاول لقمع الديانة الحديثة العهد وخنقها في مهدها. فتوجه شاول بغيرة فتاكة إلى دمشق ليقبض على المسيحيين فيها وليقتادهم مجندلين مقيدين بالسلاسل إلى زعماء اليهود في القـــدس. ولمـــا

* – المونوفيزية اسم أطلقه المؤرخون البيزنطيون واللاتين على السريان الأرثوذكس والأقباط والأرمن الذيـــن لم يقبلـــوا المجمع الخلقيدوني. وهذه الكلمة فيها بعض الالتباس لأنها لا تميز تعليم هذه الكنائس عن آراء أوطيخا، فإنهـــا، وإن كانت تقول بطبيعة واحدة للكلمة المتجسد، تقر بحقيقة كون المسيح إلها كاملا وإنسانا تاما (من طبيعتين) ولـــو لم يكن (في طبيعتين). وقد يشير بعضهم إلى هذه الكنائس بكلمة لا خلقيدونية أو بالكنائس القديمة السابقة الخلقيدونية.

** النسطورية منسوبة إلى الراهب نسطوريوس، وهذه التسمية أطلقها الروم الكاثوليك، في عهد متأخر مـــن أجـــل أن يلصقوا بالكنيسة السريانية أو كنيسة الشرق وصمة الهرطقة، ولكي يميزوا بينها وبين من التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية.

٢ – من اشهر المعالم المسيحية في دمشق كنيسة حنانيا القابعة تحت الأرض وينزل لها بدرج، ونقلا عن مصدر كاثوليكي فقد كانت كنيسة حنانيا في القرن السادس عشر تخص السريان الأرثوذكس حيـــث يقـــول الحـــاج *Johanna Kodvycq* المدعو *cotovicus* (١٥٩٨ – ١٥٩٩): (في اليوم السادس عشر من شهر كانون الأول ذهبوا بنـا إلى بيت حنانيا تلميذ الرب ومعلم بولس، وهذا البيت واقع قرب الباب الجنوبي (كذا) وهو يحوي سردابا يـــنزل إليـــه بخمس عشرة درجة، منقسما إلى ردهتين معقودتين ومتلاصقتين يزينهما بعض الرسوم. وإحدى هـــاتين الردهتـــين المبنية على يمين الداخل هي اليوم معبد للمسيحيين اليعاقبة وهي تشمل على هيكل حجري وفيها يقيمون الأسرار المقدس).
عن مجلة المسرة – حريصا، السنة ٣٢/١٩٤٦، تشرين الأول ص٣٦٦.

وصل على مقربة من دمشق، صعقه الرب بأنواره السماوية، فدخلها كفيف البصر وأنـــزل في بيت يهوذا في الزقاق القويم حيث عمَّده حنانيا الرسول، وقد عاد إليه بصره. فأخذ شاول يبشر بالمسيح ويكرز في مجامع اليهود بدمشق، ثم سار إلى بلاد العرب، إلى منطقة حوران، حيـــث قضى ثلاث سنوات، وعاد إلى دمشق للتبشير بالمسيح. فتآمر عليه اليهود وكمنوا له عند مدخل المدينة، فأنقذه المسيحيون ودلوه في زنبيل من سور المدينة الشرقي، فهرب خلسة متجهاً إلى القدس[1].

ومر المسيحيون في عهود مختلفة من الحكم، ففي أيام يوليانوس الجـاحد(٣٣٣ – ٣٣٦) كان لدمشق منه عطف خاص، ولما اصدر أوامره باضطهاد الديانة المسيحية لإعادة الوثنيـــة إلى عزها التليد وأمجادها القديمة، نكل يهود دمشق، أرضاء لخاطر ذاك الملك، بالمسيحيين ودمـــروا كنائسهم. ومع الملك ثاودوسيوس الكبير في سنة ٣٧٨، أضحت الديانة المسيحية ديانة المملكـة الرومانية، فاصدر الملك أمراً بهدم المعابد الوثنية، وتحول معبد الإله جوبيتير الوثني في دمشـق إلى كنيسة مسيحية على اسم القديس يوحنا المعمدان. ولما استولى الفرس على دمشق ســنة ٦١٤، في عهد ملك الروم هرقل، سبوا قسماً كبيراً من سكانها، وبخاصة أصحاب المـــهن، وفي ســنة ٦٢٥ افتتح العرب بقيادة أبي عبيدة وخالد بن الوليد، والأرجح انهـــم دخلـــوا المدينـــة بعـــد مفاوضات سلمية، وجرى اتفاق بين الفاتحين العرب ووجهاء المدينة المسيحيين على أن يكـــون للمسلمين القسم الغربي من المدينة، ويبقى للمسيحيين واليهود القسم الشرقي وما إليه. وتنعـــم المسيحيون براحة وسلام نسبيين في عهد الدولة الأموية، وكان لهم خمس عشرة كنيسة، وقـــد جعلت كنيسة يوحنا المعمدان بعد الفتح العربي مشتركة بين المسيحيين والعرب، إلى أن تحولـت نهائياً إلى (الجامع الأموي) في عهد الخليفة الوليد الأول عام ٧١٣.

وكان ممن سلم مفاتيح دمشق إلى خالد بن الوليد منصور بن سرجون*مع أسقف دمشق وذلك في ١٠ أيلول ٦٣٥، وقد أصبح منصور هذا وأبوه سرجون من بعده من كبار موظفـــي البلاط الأموي وقيمين على أموال الدولة.

---

١ الأب مترى أثناسيو: جرجي جبرائيل بيطار دمشق ١٩٩٣ ص١٤ و ١٣

* . ·تتضارب الروايات حول هوية منصور بن سرجون، فقد كان من اسرة عريقة في الشرق.(الملكيون) يشـــددون على أنه كان منهم وهو ما عرف عن حفيده يوحنا الدمشقي، فيما يذهب البعض ومنهم الأب اسحق ارملة (راجع له: الملكيون بطريركيتهم الإنطاكية، لغتهم الوطنية وطقسهم) إلى نسب أسرة منصور إلى السريانية داعمـــا رأيـــه باستشهادات من (ابن البطريق)، منها أن منصورا عندما فاوض خالد بن الوليد في أمر تسلم دمشق طلب إليـــه أن يعطي الأمان له ولأهله ولمن معه، ولأهل دمشق، سوى الروم. ولكن هذا الرأي قد يذهب إلى أن المنصور وأســـرته لم يكونوا عرقا وعنصراً بل مذهبا، ذلك أن لكلمة الروم مدلولان: العرق البيزنطي والمذهب البيزنطي
راجع الأكسر خوس جوزف نصر الله: منصور بن سرجون منشورات للمكتبة البولسية بيروت ١٩٩٢ ص٣٧ مرجع سابق

وهناك رواية أخرى تقول أن الاستسلام كان لأبي عبيدة على يد وجهاء المدينة من غير علم من توما حاكمها وصهر هرقل[1]. أما (الخيانة) فارتكبها كاهن مسيحي يدعى يونس بن مرقس، فتح الباب الشرقي لخالد بن الوليد. ويقول أبو عثمان الصفاني[2] أن راهباً وضع شروط الاستسلام لخالد بن الوليد. ويقول سيف بن عمرو أن سكان حي الباب الشرقي لما أيقنوا أن العرب اقتحموا الباب خفوا إلى أبي عبيدة واستسلموا[3]، وكانت المدينة آنئذ تحت إمرة البطريق نسطاس.

تبقى (قصة) فتح دمشق من القصص التي (تروى) وكل يذكر ذلك بالطريقة التي تحلوا له. ويقول الواقدي: بلغني أن أبا عبيدة لما دخل دمشق بأصحابه سارت القسس والرهبان بين يديه على مسرح الشعر وقد رفعوا الانجيل والمباخر بالند والعود. ودخل أبو عبيدة من باب الجابية ولم يعلم خالد بن الوليد لأنه شد عليهم بالقتال. قال وكان هناك قسيس من قسس الروم اسمه يونس بن مرقص وكانت داره ملاصقة للسور مما يلي باب شرقي الذي عنده خالد وكان عنده ملاحم دانيال عليه السلام وكان فيها: أن الله تعالى يفتح البلاد على يد الصحابة ويعلوا دينهم على كل دين، فلما كانت تلك الليلة نقب يونس من داره وحفر موضعاً وخرج على حين غفلة من أهله وأولاده وقصدوا خالد بن الوليد وحدثه أنه خرج من داره وحفر موضعاً والآن أريد أماناً لي ولأهلي ولأولادي قال فأخذ خالد عهده على ذلك وانفذ معه مائة رجل من المسلمين أكثرهم من حِمْيَر، وقال لهم إذا وصلتم المدينة فارفعوا أصواتكم بأجمعكم واقصدوا الباب واكسروا الأقفال وأزيلوا السلاسل حتى تدخلوا إن شاء الله تعالى. قال ففعل القوم ما أمرهم به خالد (رض) وساروا ومضى أمامهم يونس بن مرقص حتى دخل بهم من حيث خرج. فلما حطوا في داره تدرعوا واحترسوا ثم خرجوا وقصدوا الباب وأعلنوا بالتكبير. قال فلما سمع المشركون التكبير ذهلوا وعلموا أن أصحاب رسول الله(ص) حطوا معهم في المدينة، وان أصحاب رسول الله(ص) قصدوا الباب وكسروا الأقفال وقطعوا السلاسل، دخل خالد بن الوليد ومن معه من المسلمين ووضعوا السيف في الروم وهم مختلفون بين يديه إلى أن وصل إلى كنيسة مريم وخالد بن الوليد ياسر ويقتل.

وقال الواقدي، والتقى الجمعان عند الكنيسة جيش خالد وجيش أبي عبيدة وأصحابه سائرون والرهبان سائرون بين أيديهم وما أحد من أصحاب أبي عبيدة جرد سيفه، فلما نظر

---

١ - أبو عبيدة الله محمد الواقدي: فتوح الشام، دار الجيل – بيروت ص٦٣

٢ -ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥ أجزاء طبعة عبد القادر بدران بعنوان تهذيب دمشق، دمشق ١٣٢٩ هـ الجزء الأول ص١٤٧

٣ -اوردها الاكسرخوس جوزف نصر الله: منصور بن سرجون مصدر سابق ص٤١ نقلاً عن البطريق في تاريخ الرسل

http://www.al-maktabeh.com

خالد إليهم ورأى أن لا أحد منهم جرد سيفه بهت وجفل ينظر إليهم متعجباً. قال فنظر إليه أبو عبيدة وعرف في وجهه الإنكار. فقال أبا سليمان قد فتح الله على يدي المدينة صلحاً وكفى الله المؤمنين القتال[1].

ولعل ما قام به سرجون هو ما عناه الواقدي في البلبلة التي أصابت سكان دمشق حين الحصار لما زحف المحاصرون لها كل من مكانه فركب أبو عبيدة ووقع القتال واشتد الأمر على أهل دمشق فبعثوا لخالد أن أمهلنا فأبى إلا القتال و لم يزل كذلك إلى أن ضاق بهم الحصار وهم ينتظرون أمر الملك واجتمع أهل البلد وقالوا لبعضهم ما لنا صبر على ما نحن فيه من الأمر وأن هؤلاء أنِ قاتلناهم نصروا علينا وإن تركناهم ضربنا الحصار فاطلبوا من القوم صلحاً على ما طلبوه منكم، فقال لهم شيخ كبير من الروم وقد قرأ الكتب السالفة: يا قوم والله أني أعلم أنه لو أتى الملك في جيشه جميعاً لما منعوا عنكم هؤلاء لما قرأت في الكتاب أن صاحبهم محمداً خاتم المرسلين سيظهر دينه على كل دين فأطيعوا القوم وأعطوهم ما طلبوا منكم فهو وافق لكم، فلما سمع القوم مقالات الشيخ ركنوا إليه لما يعلمون من علمه ومعرفته بالأخبار والملاحم. فقالوا كيف الرأي عندك؟ فنحن نعلم أن هذا الأمير الذي على باب شرقي رجل سفاك للدماء. فقال لهم أن أردتم تقارب الأمر فامضوا إلى الذي على باب الجابية وهكذا تم فتح دمشق[2].

الجزية

على تضارب الروايات في ذلك فإن الأمر الأكيد الذي أعطاه خالد بن الوليد هو: أما الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، أو القتال، هكذا يروى عن خالد بن الوليد[3]، لكن العهد الذي أعطاه هذا القائد العربي لأهل دمشق كما أورده البلاذرى (ص١٢١) يعد نموذجاً لما أعطاه لسائر المدن السورية.

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها. أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شيئا من دورهم لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله ﷺ والخلفاء والمؤمنين. لا يعرض لهم إلا بالخير إذا أعطوا الجزية.

١- أبو عبد الله بن عمر الواقدي: فتوح الشام دار الجيل – بيروت ص٨٠
٢- أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي: فتح الشام مرجع سابق ص٧٨
٣- أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي: فتح الشام مرجع سابق ص٥٨

إن الكثير كتب عن نظام الجزية بيد أن الشعار الذي طرحه الخليفة عمر بن الخطاب (لا يجتمع في الجزيرة) دينان والذي كان دافعاً سياسياً وليس إسلامياً، قصد به ترحيـــل الذيـــن لم يسلموا من اليهود إلى أريحا في فلسطين من المسيحيين إلى البلاد الشامية. فالإسلام في تعامله مع المسيحيين لم يرتب عليهم سوى الالتزام بالجزية، ولم يجبرهم على الإسلام ولا على الرحيل مـن أرضهم، وربما أن هذا تم بسبب المشاكل التي أثارها اليهود في المدينة وغيرها. ومن المعـروف أن الخليفة عمر بن الخطاب له مواقف ودية تجاه المسيحيين لا زالوا يذكرونها له.

ونظام الجزية الذي شاع في الإسلام لم يخترعه هؤلاء، بل كان موجوداً من قبل، ونحـــن نعلم أن نصارى اليمن كانوا يدفعون الجزية للملك الحميري، وكان من نصارى الشام يدفعـون الجزية للروم، ونصارى ما بين النهرين لفارس.

واعتبرت الجزية مجرد ضريبة تدفع للحاكم من قبل الشعب المحكـــوم فصـــارت تدفـــع للحاكم من قبل غير اتباع دينه من الشعب المحكوم. وفي عهد الخليفة عمر كان مقدارها زهيـداً ٤٨ درهماً في العام على الغني و٢٤ درهماً على المتوسط و١٢ درهما على الفقير وبعض الشـيوخ والنساء والأطفال والمرضى والرهبان والعميان. وفي بلاد ما بين النهرين والشام نظروا إلى الجزية كضريبة تدفع للحاكم، وهكذا فهموها وتقبلوها.

ويذكر أدوار حشوة أنه بعد أربعة عشر قرنا يدين الوجود المسيحي باستمراره في هـــذا المشرق لنظام الجزية، فلو طبق الحكام المسلمون شعار الخليفة عمر بن الخطاب في الجزيرة علـى بلاد الشام وما بين النهرين لم يكن بالإمكان الآن وجود مسيحي واحد. فالحكمة الإلهيـــــة في القرآن الكريم هي التي أملت هذا الحل لكي تتحقق التعددية الدينية ولكي لا يشعر أحد بالقهر. ولأن الجزية كانت ضريبة حماية فإنها أسقطت عن العرب المسيحيين الذين كانوا يقـــاتلون في صفوف المسلمين[1]. وارجع البعض أن الجزية كانت أبان الحكم الأموي لا تفرض إذلالاً وامتاناً، بل حماية. وإذا ما نقضت تلك الحماية ردت الأموال إلى أصحابها كما ثبت ذلك من وقـــائع التاريخ. فحين اضطر خالد بن الوليد وأبو عبيدة وبقية القواد المسلمين إلى مغادرة المدن الشامية قبيل معركة اليرموك، قالوا لأهلها (إن كان قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية. ونحـــن الآن عاجزون عن حمايتكم، فهذه أموالكم نردها إليكم)[2].

١- أدوار حشوة: أثر المسيحية المشرقية في الحضارة العربية حمص ١٩٩٨ ص٨ مرجع سابق

٢- بشير العوف: تعاليم الإسلام بين المعسرين والميسرين حرآن الجزء الثاني ص٣٦٠ دار الفتح للطباعة والنشر بيروت ١٩٩١

وقد كان النصارى في نيابة دمشق يضمون فئتين هما:

الملكانية، وهؤلاء يدينون بالولاء للبابا، وهم الذين يعرفون بالكاثوليك في الوقت الحاضر.

اليعقوبية، وهم الشرقيون، ومذهبهم منتشر أيضاً في مصر والحبشة.

وقد كان يوصى زعماء اليهود والنصارى بجملة وصايا لا تخرج في مضمونها عن روح الدين وجوهره، كما أنها تبين — من طرف خفي — الأخطاء التي كان يقع فيها بعض (رجال الدين) النصارى في النيابة.

فمن جملة تلك الوصايا التي كانت توجه لبطرك النصارى عند تعيينه:

مراعاة روح الدين وذلك (بتنظيف الصدور من الغل قبل تنظيف الأجسام بماء المعمودية)

ضرورة الاهتمام بالبيع والأديرة، فلا تتخذ مكاناً للنزهة، ولا وسيلة للتجارة، ولا وكراً للخلوة والفساد.. أو مصائد للمال.

عدم إيواء الغرباء بدون إعلام الحكام.

عدم الاتصال بملوك الدول الأجنبية، أو استلام رسائلهم بدون إعلام السلطان[1]. ونستطيع أن نفهم من هذه الوصايا أن بعضهم كان يتصل بالدول الأجنبية، أو يستقبل رسلها، أو يتخذ الأديرة مكاناً للنزهة والتجارة والفساد، كما كان الحال بالنسبة لبعض رجال الدين في أوربا في الفترة نفسها.

وعند الحديث عن أهل الذمة في العصر المملوكي لا بد من التطرق إلى ما ألزموا به من ارتداء ألوان معينة والظهور بشكل متميز.

فقد ألزم النصارى بوضع العمامة الزرقاء، والزم اليهود بوضع العمامة الصفراء، في حين الزم السامرة بوضع العمامة الحمراء.

ويعود أصل ذلك إلى سنة ٧٠٠ هـ — ١٣٠٠ م عندما قدم وزير من المغرب إلى القاهرة، فانتقد الحرية الزائدة التي كان يتمتع بها أهل الذمة الذين رآهم يلبسون أفخر الملابس، ويستخدمون من أجل المناصب، وهذا يدل على روح التسامح، ويبدو أن كلامه وجد آذاناً مصغية عند بعض الأمراء، ولا سيما الأمير ركن الدين الجاشنكير، الذي بادر إلى عزلهم من الوظائف الحكومية (فعيد النصارى — عيد الفصح — بمصر عيداً مشؤوماً)، ثم أغلقت كنائسهم، وكتب بذلك إلى جميع نواب السلطنة، فجمع النصارى واليهود في دمشق، ومنعوا من ركوب الخيل والبغال، ونودي بإلزامهم بشعار أهل الذمة، وكان ذلك في شعبان سنة ٧٠٠ — ١٣٠٠م، وفي اليوم التالي ظهروا بذلك الزي العجيب.

---

١ – القلقشندي: صبح الاعشى ١٤ جزء مطبوع في القاهرة بين ١٩١٣ – ١٩١٨ الجزء ١٣ ص٢٢

أما في الحمام، فقد كان على الرجال أن يضعوا في أوساطهم حبلاً وفي أوساط نســائهم جرساً. وقد شدّد على أن تصبغ نساؤهم أزرها، ومنعوا من إظهار المنكر والخمر والناقوس.

على أن هذه الإجراءات الشديدة، والتي يستخدمها البعض للدلالة علـــى التعصـب، سرعان ما خففت، وأعيد استخدام اليهود والنصارى في المناصب الحكومية، وبقـــي الـــزي، وبعض الشكليات التي لا تمس حرية العبادة، وهذا هو المهم[1].

ولكي نكون منصفين في التحقيق التاريخي فإنه يجب علينا أن نذكر أن غير المسلمين قـد وجدوا في بعض الدول الإسلامية عزاً وتكريماً ومشاركة في حق المواطنة، ومساواة في مراتـــب الدولة، وفي الكثير من وظائفها ((كما وجدوا في عهد دول إسلامية اخرى، ذلاً وعذاباً ومهانة، حتى أن يد غير المسلم عند الدفع هي السفلى فلا تكون هي العليا في حالة الدفع، بل إن بعـــض الولاة المسلمين قد أخذوا الجزية من الذي أسلم بالرغم من دخوله في الإسلام، بل أن بعضـــهم قد فرض على غير المسلمين نوعا من اللباس الخاص، الذي يميز المسلمين عليـــهم، وفي بعـــض الأحيان فرضوا عليهم إلا يسير الواحد منهم في الطريق العام راكباً دابته، بل عليه أن يـــترجل على قدميه إذلال له. لقد اطلعت على وثيقة عن طلب الإذن بدفن أحد النصارى بعد أن مات، فإذا فيها نص يقول (فطس) عبدكم فلان بدل أن يقال فيها مات أو قتل أو توفي إلى رحمة الله))[2].

موقف السريان من الأمويين

فيما نقلنا عن (الواقدي) ما ذكره عن فتوح الشام نرى أن وصفه للحصـــار والمعـــارك وحكام المدن كان من نصيب (الروم) كما يسميهم في غالب صفحات كتابه الكبير الحجم، مما يعني أن القتال كان يحض الرومان في احتلالهم لهذه المناطق من سوريا وعلى رأسهم هرقل القابع في إنطاكية. ومن النادر أن أعطى معلومة عن الناس القاطنين في القرى أو بقية أفراد الشـــعب. وحتى حين المفاوضات فقد كان اللسان عربي من الجهة الإسلامية وورومي من الجهة المســيحية. وهذا يدل على لغة الحكام آنذاك، وليس على لغة الشعب إلا وهي السريانية.

[1] – اكرم حسن العلي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ١٥٠٠ – ١٥٢٠ م الشركة المتحدة للتوزيع – دمشـــق ١٩٨٢ ص٨٤

[2] – بشير العوف: الإسلام دين؟ ام دولة؟ أم دين دولة؟ مجلة المشرق السنة ٧١ الجزء الثاني ١٩٩١ ص٤١٠.

كما علينا هنا أن نتذكر المسيحية العربية ومعظمها كان سريانياً، فلو كان لهؤلاء دور في الحكم لكانت لغة الحديث أهون لدى المفاوضات الاستسلامية. والأرضية التي تجمع بين القبائل العربية القاطنة في سوريا وأختها القادمة من الجزيرة العربية تجعل التعاطف والمساندة حتمية في مثل هذه المواقف. وعلى ذلك كان هناك عداء بين الشعب السرياني ومعظمه من أبناء الريف والقبائل العربية وبين بيزنطة المحتلة للأقاليم السورية لمخالفته إيَّاها في المعتقد الديني المسيحي، فنفوا أساقفتهم وطرحوا مطارنتهم في السجون، واضطهدوا بطاركتهم وراح من الشعب آلاف الضحايا. وقد نظرت بيزنطة إلى السريان دائماً بعين الاحتقار والازدراء، من هنا سهولة فتح دمشق بعد أن نفرت منها قلوب السوريين وبردت المحبة لحكامهم وحلت مكانها الكراهية لسياسة الحكم البيزنطي السيئة. وقد لاقى سكان أقاليم كثيرة الجيش العربي بالترحاب والابتهاج لإنقاذه إياهم من الظلم والجور.

ومع أن المسيحيين بكافة طوائفهم: ملكيين وسريان وموارنة وقفوا ضد المحتل البيزنطي وساعدوا على الفتح العربي لهم، فإن البعض منهم فسر هذه الغزوة باختلافها عن الغزوات العادية، وان الإمبراطورية الرومانية التي تمثل آنئذ العالم المتمدن، لابد من أن تتغلب عاجلاً أم آجلاً على هؤلاء الغزاة، مرددين في قرارة أنفسهم (لننتظر الشتاء، فيعيد إلى الجزيرة العربية هؤلاء القوم. لابد من أن ندع العاصفة تمر ونحاول إنقاذ الحاضر ونبعد عن المنطقة أهوال الحرب)[1]، ولعل هذه المشاعر هي التي أوحت إلى ابن سرحون ووجهاء دمشق بمسلكهم، إذ لم يكن لهم من يستأنسون بمشورته، فقد هربت الحامية البيزنطية تاركة الأهالي لمصير مجهول.

وإذا اعتبرنا منصور بن سرحون قام بما فرضه الواقع، فالسريان هم أكثر المسيحيين كرهاً للبيزنطيين، دون الوقوف على كونهم من ديانة واحدة، فهم يشعرون بانتمائهم لوطنهم قبل أي اعتبار آخر، دونك محافظتهم على لغتهم رغم محاولات طمسها من قبل المستعمرين البيزنطيين. لقد اضمر السريان والمسلمون على السواء عداءً شديداً لبيزنطة، حتى أن ابن العبرى أحد قادة السريان اللاهوتيين والعلميين ذكر في كتابه (التاريخ الكنسي) أن إله الانتقام أرسل العرب ليخلصونا من جور الرومان، فلم يعيدوا إلينا كنائسنا، بل احتفظ كل بما يملك، على أن الله انتشلنا من قساوة الروم.

وبفضل تقارب الكنيسة السريانية مع الإسلام في العصر الأموي كان السريان أقل عرضة للخصومات الداخلية والانقسامات ولذا نالوا اعترافاً أوسع بحقوقهم ونعموا بالحماية. واحتفظت الكنيسة

[1] – أورد ذلك الاكسخوس جوزف نصر الله: منصور بن سرجون، مصدر سابق ص٤٣، نقلا عن هنرى لامنس.

السريانية بسلطاتها الكنسية بفضل هذا التآزر، كما جرى الحال مع الأقباط في مصر*.

ولم يأت هذا التعاون من فراغ، فقد كان للكنيسة السريانية حين الفتح العربي لسورية وزنها الجماهيري الكبير، وعمل بطريركها أثناسيوس على التوفيق بين كنائس سورية ومصر المونوفيزية، ومات سنة ٦٣٠، وشهد خلفه يوحنا (٦٣١ – ٦٤٩) الفتح الإسلامي. وكانت المونوفيزية (السريانية في سورية) منتشرة بين القبائل العربية المسيحية في صحراء سورية، على نحو الغساسنة والكلبيين والتغلبيين...الخ، وقد وحدت كلها في العرب القادمين اخوة في الدم واللغة، وساعدتهم على ترسيخ سلطتهم وفتوحاتهم، ومن هؤلاء لاحقاً تشكلت الكتل الإسلامية في سورية. وهذا بحد ذاته ما جعل من بعض الطوائف المسيحية تأخذ موقفاً حذراً من السريان.

ولعل هذا التقارب الأولي بين المسلمين والسريان هو الذي أضفى على علاقات المسلمين مع المسيحيين عامة، بعد استقرار الحكم الأموي في سورية، نوعاً من العلاقة الأخوية.

المسيحية في العهد الأموي

حين نوى يزيد بن معاوية أن يجعل من سوريا قطراً نموذجياً، استمال إليه سكان الأقاليم وأخذ يعتمد على القبائل السورية المسيحية، والمواطنين الأصليين المسيحيين أن يدربوا على الحياة السياسية والنظام الإداري، العرب الرحل الفاتحين الذين أتوا سورية، فألف السوريون المسيحيون العرب كوادر الجيش الأموي، وعهد إلى مسيحيين تميزوا بحكمتهم ورويتهم وتفوقهم في العلوم الإدارية والمالية على عرب الحجاز في أن يحتلوا المناصب الرفيعة في الدولة، فوكل إلى طبيبه السرياني ابن آثال جباية خراج حمص.

* - ذكر ابن الحكم (المتوفي ٨٧١/٢٥٧) وهو صاحب اقدم مخطوط في فتح مصر أن أسقف القبط في الإسكندرية لما بلغه قدوم عمر ابن العاص إلى مصر كتب إلى القبط أنه لا تكون للروم دولة وأن ملكهم قد انقطع ويأمرهم بتلقي-عمرو. ويقال أن القبط الذين كانوا بالغرماء كانوا يومئذ لعمرو أعوانا، وما ذلك بمستبعد. فقد اشتد الجفاء بين كنيسة الملكيين – كنيسة الدولة – وفرقة المونوفيزيين وهي الديانة الوطنية فبالغت الأولى في الكيد والمكر بالثانية والتضييق على أبنائها. وكان هرقل قد انصرف بما اوتيه من دهاء إلى حمل القبط على إبطال طقس العبادة القبطي وأوعز إلى المقوقس أن يدعو الكنيسة الوطنية قسرا إلى اتخاذ تعاليم المونوثيلية مذهبا فهاج رجال الكهنوت من القبط، فأنزل فيهم المقوقس شر الاضطهاد والإرهاب. وعدته تواريخ القبط المسيح الكاذب واعتبرته عدو الأمة بل عدو الدين المسيحي. عن: د. فيليب حتي: تاريخ العرب ص٢٢٢، مرجع سابق.

http://www.al-maktabeh.com

وكانت الإدارة العربية في سوريا في أول الأمر مجرد استمرار للإدارة البيزنطية، ثم أصبحت محاكية لها، فعربت اللغة والعملة والمراسم. وحتى بعد اضمحلال إمبراطورية الخلفاء لتحل مكانها دويلات وأسر حاكمة صغيرة بقي للنموذج البيزنطي بريقه في نظر تلك الدول وكذلك في نظر إمبراطورية مصر الفاطمية. وهكذا فإن ارث روما البعيد، وكذلك الفخامة المسيحية — الشرقية للعاصمة المطلة على البوسفور قد فرضا نفسيهما على أبرز خصومهما، وتركا أثراً يمكن تتبعه حتى ما بعد عام ١٠٠٠م، وان كان تتبع هذا الأثر يزداد صعوبة كلما تقدمنا في الزمان[١].

وكان معاوية بن أبي سفيان الخليفة الأموي الأول قد عين (آل سرحون) النصارى في وظائف هامة، فوالد يوحنا الدمشقي يمكن اعتباره شغل منصب أول وزير مسيحي في عهد إسلامي، ويوحنا نفسه عين مربياً ليزيد بن معاوية ولغيره من أبناء الخلفاء وبقي في منصبه حتى خلافة هشام بن عبد الملك حيث اعتزل[٢]، وبعد ألف وأربع مئة سنة تقريباً جاء من ينتقد تعيين مسيحيين في وظائف هامة خلال العصر الأموي[٣].

ومنذ البداية كان هنالك شعور لدى العرب بالإعجاب والرغبة في محاكاة الإمبراطورية البيزنطية في المجال الإداري الاجتماعي، وفي الطقوس والفن. ورغم كبرياء الدين الجديد فقد كان عرب سوريا المسلمون، بما فيهم الخلفاء، ينظرون إلى بيزنطة مثلما كان ينظر إليها من قبل أبناء قومهم الغساسنة، حملة ألقاب (فيلارك) وهم عملاء بيزنطة على حدود الإمبراطورية في القرنين الخامس والسادس. ولم يتضاءل هذا الاعجاب، حسب ما ورد في تقييم حديث، إلا في نهاية حكم أسرة بني أمية حين انتقلت الخلافة إلى الشرق مستبقة ذلك في الاتجاه السياسي الذي ستقرره الثورة العباسية في ذلك بفترة وجيزة. وقبل ذلك، كان هناك بالإضافة إلى حروب الحدود، سفارات وبعثات تجارية بين الدولتين الإسلامية والبيزنطية، مع كل ما يقترن بها من تأثيرات فنية وثقافية امتدت من البوسفور إلى سوريا والعكس بالعكس[٤].

---

[١] - شاخت وبوزورث (تصنيف): تراث الإسلام، ترجمة د. محمد زهير السمهوري، القسم الأول، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١١٣ ص١٤١.

[٢] - حسين العودات: العرب النصارى، دار الاهالي — دمشق ١٩٩٢ ص١٠٨.

[٣] - في مقال للشيخ محمد أبو زهرة من مجلة (الفكر الإسلامي)، بيروت أوائل ١٩٧١، حيث يندد ببني امية لكونهم اتخذوا من يوحنا الدمشقي وابيه من قبل بطانة لهم. راجع مجلة المسرة — حريصا السنة ٥٧/١٩٧١ أيار ص٤٠١.

[4] - *H. A. Giff: Arab-Byzantine Relations Under the Umayyad, Caliphate, Dumforton DaKs Paper 11(1958) 219-33.*

وبعد استقرار الحكم الأموي في سوريا، لم يعان المسيحيون كثيراً من تغـير الأوضـاع خلال عشرات السنين الأولى التي أعقبت الفتح، لا بل كانت هذه الحقبة مصدر نعمة ورخـاء لأبناء البلد الأصليين. وحافظت سوريا على طابعها كبلد مسيحي حتى نهاية الحقبة الأمويـة، وكان السواد الأعظم من سكان المدن مسيحياً مثل دمشق وإنطاكية وحمص والقدس حيـث ظلت محافظة على طابعها القديم وسابق سكانها مما جعلها أوساطاً مسيحية طوال القـرن الأول للهجرة، فيما ظل العرب في سوريا، وفي مقدمتهم الخلفاء الأمويون، يصيبون إلى الإقامـة في المدن الصحراوية الصغيرة مثل تدمر والرصافة وخناصرة.

وقد وقف المسيحيون في بلدان المشرق من الفاتحين المسلمين موقفاً مشـرفاً، فكـانوا أصحاب المعارف، ملمين بالطب والعلوم والفلسفة، وكان لهم ولما قاموا به من ترجمات الفضل الكبير في نقل علوم اليونان إلى العرب. وكانوا بارعين في الإدارة والسياسة والدبلوماسية (نذكر على سبيل المثال الجاثليق طيمثاوس الأول ومهارته في الدفاع عن المسيحيين أمام الخلفاء) وأخيراً كان لهم قادة[1].

وتطورت الدولة الأموية وأصبحت احتياجاتها للنهضة العلمية والفكرية كبيرة، وهـذا جعلها تعتمد أكثر فاكثر على النصارى الذين تعربوا وحصلوا على (مواطنية) دار الإسـلام في إطار عقد الذمة، وكان رأسمالهم خبرتهم الإدارية، وثقافتهم وتقدمهم العلمي، وإلمامهم باللغـات الأخرى إضافة للغة العربية، مما أهلهم للقيام بمهام الترجمة والاطلاع على علوم الشعوب الأخرى وحضاراتها وفلسفاتها وآدابها، حتى أن اثناسيوس البلدي (٦٦هـ) المسيحي السـرياني، تـولى بطريركية إنطاكية واختاره عبد الملك بن مروان معلماً ومؤدباً لأخيه عبد العزيز بن مروان[2].

ويرى د. حتي أنه أثناء الحكم الأموي لبلاد الشام انقسم السكان في جميع أنحاء الدولـة إلى طبقات احتماعية أربع، وكانت أعلى طبقة بطبيعة الحال هي طبقة المسلمين الحاكمة، وعلى رأسها أسرة الخليفة والأرستقراطية المؤلفة من العرب الفاتحين. ولا نعلم بالتدقيق عدد النسل في هذه الطبقة، فلقد كان عدد الرواتب المفروضة للمسلمين العرب في دمشق وجندها أيام الوليـد خمسة وأربعين ألفا. وفي أيام مروان الأول فرض لحمص وجندها عشرون ألفا. ولم يكن عـدد الذين اعتنقوا الإسلام كبيراً قبل القيود التي وضعها عمر بن عبد العزيز. وعلى الرغم مـن أن

[1] - مجلة المشرق – بيروت السنة ٦٧ الجزء الأول ١٩٩٣ الأب بولس دسيزيه.

[2] - دون ذكر المؤلف: التعايش الإسلامي – المسيحي كيف وعلى أي اساس، المركز الوطني للدراسـات – بـيروت ١٩٨١ ص١٩.

عاصمة الخلافة كانت قد اصطبغت في آخر العهد الأموي بصبغة الإسلام، فإن سورية بوجه عام ظلت محافظة على صبغتها النصرانية حتى القرن الثالث للهجرة. ولقد حافظت المدن الصغيرة والقرى وبنوع خاص المناطق الجبلية – مأوى المغلوبين والمضطهدين – على طابعها الوطني ومميزات حضارتها القديمة. والواقع أن لبنان ظل نصراني المذهب سرياني اللغة إلى ما بعد الفتح بأجيال طويلة. و لم يقرر الفتح فيه إلا أمراً واحداً هو انتهاء النزاع الحربي. أما من حيث الدين والجنس والاجتماع وبنوع أهم اللغة فإن النزاع في الواقع لم يبدأ إلا بعد انتهاء الفتوح[١].

أثر الإسلام في عقلية العرب

أثر الإسلام في عقلية العرب تأثيراً كبيراً ويمكن إيراد ذلك من ناحيتين مختلفتين:

الأولى – ناحية مباشرة وهي تعاليمه التي أتى بها مخالفاً عقائد العرب.

الثانية – ناحية غير مباشرة وهي أن الإسلام مكن العرب من فتح فارس ومستعمرات الروم، وهما أمتان عظيمتان تحملان أرقى مدنية في ذلك العهد.

وكان من أثر الفتح وضع البلاد وما فيها من نظم وعلم وفلسفة تحت أعين العرب فتسربت مدينتهما إلى المسلمين وتأثرت بهما عقليتهم[٢].

وبدءاً من انتشار الإسلام ونشوء الخلافة العربية ظهر التضاد الديني – الأيديولوجي بين الغرب والمشرق العربي. ولكن عملية التواصل الثقافي بين هذين الإقليمين لم تنقطع كلياً. ففي المرحلة الإسلامية الأولى لعب المسيحيون السوريون دوراً متوسطاً بين الطرفين. وفي القرن الثامن للميلاد التقى الإسلام في سورية مع الفكر المسيحي الشرقي، كما وضعه الآباء الإغريق في العصر السابق، وهو اللقاء الذي وصفه عالم الإسلاميات الفرنسي لويس ماسينيون بـ (تهجين الدين المنتصر مع الثقافة المغلوبة)، أو المزاوجة الثقافية بين الغالب والمغلوب حيث يلاحظ تأثير الفكر الفلسفي المسيحي في أطروحات علم الكلام الإسلامي المبكر، وفي أساليبه الإقناعية. ويتجلى ذلك التأثير في المناظرات الكلامية – الجدلية التي سلكها الجهميون والجبريون والقدريون حول إشكالية العلاقة بين الجبر الإلهي (التسيير) وحرية الاختيار الفردي (التخيير)، وكذلك في الحركة الزهدية الإسلامية[٣].

[١]– فيليب حتي: تاريخ العرب ص٥ و ٢٩٦ مصدر سابق
[٢]– أحمد امين: فجر الإسلام دار الكتاب العربي – بيروت ١٩٧٥ ص٦٩ مرجع سابق
[٣]– اليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية ترجمة د. خلف الجراد سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢١٥ ص٨١

والصيغة الدينية للمسيحية السورية كان لها مدلولها السوري والبيزنطي، وفي التأكيد لهذا السياق نرى أن الصيغ السورية والبيزنطية للمؤلفات المسيحية الجدلية المنافحة عـــن العقيـــدة المسيحية، وتمايزت عن بعضها بشكل جوهري. فالصيغة السورية كانت على الأغلب أكـــثر تحفظاً واتساعاً، بحيث نرى أن المناظرة كانت تضم بدرجة أكثر أو أقل من الوصف والتفصيـــل حجج الخصم وآراءه. أما الصيغة البيزنطية (وكان ثيوفانس الواعظي "الواعظ" واحداً من أوائل أعلامها) فكانت في معظمها مودلجة، ناهيك عن أن المعطيات التي تقدمها عن عقيدة المسـلمين – إذا قدمت – تأتي مشوهة لهذه العقيدة بصورة حادة. والحقيقة أن أوربا تعرفت المؤلفـــات الدينية الكلامية المعادية للإسلام في نموذجها البيزنطي بالدرجـــة الأولى، في حـــين أن الأدب السجالي للمسلمين السوريين باستثناء حالات قليلة جداً (مثلاً ما اشتهر في الأوساط المســيحية الأسبانية بعنوان "رسائل عبد المسيح بن اسحق الكندي" – كان من النســـاطرة – لم يكـــن معروفاً عند الأوربيين)[1].

إن العامل الأكبر في ظهور المعتزلة كفرقة كلامية هي المسيحية، فلا يجب أن ننسى مـــا كانت عليه المسيحية يوم الحكم الأموي في سوريا، فقد تقرب الأمويون من المسيحيين وأسندوا إليهم المناصب العالية، وكانوا متسامحين في الدين فلم يمنعوا قيام مناظرات دينيـــة وجـــدالات لاهوتية بين المسيحي والمسلم، إلا أنها توقفت مدة طويلة ثم استأنفت في زمن المأمون الذي كان أكثر من الأمويين تسامحاً وأعظم تقديراً للعلم.

شكل العلاقات بين الجانبين

صحيح استتب الوضع في سوريا وفلسطين للحكم الأموي، إلا أن ذلك لم يتم بالنســـبة إلى لبنان، وقد فشل معاوية بن أبي سفيان من خلال حملته البحرية على القسطنطينية لمدة ســـبع سنوات، كما فشلت الهجمات البرية على مقاطعات آسيا الصغرى، مما جعل معاويـــة يعقـــد معاهدات مع ملك بيزنطة قسطنطين الرابع اللحياني سنة ٦٧٩، بحيث تعهد معاوية بدفع غرامة كل عام، وذلك بعد أن قامت قوات المردة في لبنان بمساعدة قوات المردة البـــيزنطيين بمعـــارك متواصلة وعنيفة، ركزت من ورائها أوسع حدود لدولة المردة بحيث شملت اللاذقية شمـــالاً إلى مشارف حماه وحمص شرقاً وإلى مشارف القدس جنوباً. نجد إذا معاهدة تقليدية نتيجة حـــرب تقام بين دولة المردة المدعومة من الدولة البيزنطية والدولة الأموية العربية من جهة أخرى. وقـــد

[1] – اليكسي جورافسكي: الإسلام والمسيحية، مرجع سابق ص٧٤.

http://www.al-maktabeh.com

يكون خوف معاوية من ثورة المردة في جبل لبنان وامتدادها إلى بلاد الشام هو السبب في حسن معاملته للمسيحيين في دمشق التي كانت تحت رحمة هجمات المردة، وهو ما أدى لاحقاً إلى قيام كيان لبنان الماروني.

ويعتبر معاوية من أقرب خلفاء بني أمية إلى المسيحيين، وقد كان له عدد من الزوجات ربما كانت احظاهن عنده ميسون وهي عربية سوّرية من بني بحدل من قبيلة كلب، وكانت تحتقر حياة البلاط في دمشق وتؤثر عليها حياة البادية التي الفتها. وهي نصرانية سريانية كنائلة زوجة عثمان التي كانت تنتمي أيضاً إلى قبيلة كلب[1].

كما كان من مظاهر التسامح في العهد الأموي وضع الأخطل التغلبي السرياني شاعر العرش الأموي وكان من ندماء يزيد بن معاوية ومن أصدقاء القديس يوحنا الدمشقي وكان يدخل على الخليفة عبد الملك والصليب مدلى من عنقه ولحيته تنفض خمراً فينشده الشعر ويطربه.

ولعل هذا (التسامح) هو ترجمة لقول الرسول العربي مما جاء في السنة: (إني لمعاقب من يجحف بحق نصراني ذمي أو يفرض عليه واجبات مرهقة). وقال بشدة أعظم أفضل تلاميذه وأحد الخلفاء الراشدين أبو بكر الصديق (لا تقتلوا أحداً من النصارى الذميين، فإن فعلتم حاسبكم الله وألقاكم على وجوهكم في نار جهنم).

وننقل عن مصدر مسيحي ملكي أن الخليفة الأموي عبد الملك (٦٨٥-٧٠٥) هو أول أمير للمؤمنين في الإسلام فتح سبيل الشهادة للنصارى بقطعه رأس معاذ زعيم قبيلة بني تغلب الكبيرة الضاربة في بلاد العرب، وأحد أفاضل وزرائه، الحجاج، سوف يقتل بحد السيف طائفة من المسيحيين رفضوا الجحود والمروق إلى الإسلام. وكذلك الوليد الأول (٧٠٥-٧١٥) واصل سياسة التنكيل بالمسيحيين الملكيين، معاملاً بالحسنى بعكس ذلك اليعاقبة (السريان) وهو الذي سلخ جلد شمأله لأنه رفض أن ينكر مسيحه. ويقول المؤرخ البيزنطي ثاوفانس أن عمر الثاني (٧١٧-٧٢٠) دعا مسيحيين كثيرين إلى الشهادة، وقد اعترف باضطهاده للمسيحيين مؤرخو الإسلام أنفسهم. وبعكس ذلك كان هشام (٧٢٤-٧٤٣) على أحسن حال مع المسيحيين. وفي عهد الوليد الثاني (٧٤٠-٧٥٠) عُذب اثنان من أساقفة الملكية لردهم مزاعم المجادلين المسلمين[2]..

---

١ – فيليب حتي: تاريخ العرب، مرجع سابق ص٢٥٦.

٢ – الأب الدكتور يوسف حجار، مجلة المسرة – حريصا، السنة ٦٦/١٩٨٠، آذار-نيسان ص١٩٨.

وسئل بعضُ شيوخ بني أمية عقيب زوال الملك عنهم، ما كان ســبب زوال ملككــم؟ فقال: جار عمالنا على رعيتنا فتمنوا الراحة منا، وتحومل على أهل خراجنا فجلوا عنا، وخربت ضياعنا فخربت بيوت أموالنا، ووثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم على منافعنا، وأمضوا أموراً دوننا أخفوا علمها عنا، وتأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، واستدعاهم عدونا فظاهرون علـــى حربنا، وطلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، وكان استتار الأخبار عنا من أوكد أســباب زوال ملكنا[1].

ومهما كان ما أوردناه، فعلينا تقصي الأسباب السياسية فيما جرى من حادث هنـــا أو هناك، فالمعتدى عليهم على ما يذكر المصدر الذي استندنا إليه هم في عـــرف المســلمين روم بيزنطيون، والحرب كانت قائمة بين العرب وبيزنطة.

* * *

إن الحكم الأموي لسوريا أخذ وأعطى، فالفضل في إيجاد الاتجاه السياسي الدنيـــوي في الدولة الإسلامية يعود إلى الدولة الإسلامية السورية الأموية، ففي هذه الدولة جرت المحاولـــة الفعلية الوحيدة لشد روابط أطراف الإمبراطورية بالمركز وهو ما لم تدرك الدولـــة الســـورية العباسية أهميته ولم تحاول التطور نحو تحقيقه، حتى أن سلطة الخليفة العباسي الفعلية كثيراً مـــا كانت تقف عند حدود مدينة بغداد[2].

وقد أصبح معاوية الخليفة الأموي ابن محيط غير المحيط العربي، وذلك أن العشرين ســـنة التي قضاها في سورية (سرينته) أو(سورته) وأعطته اتجاها جديدا في الحياة الاجتماعية والسياسية. فإن علم الدولة وفن السياسة وعلم الحقوق الدستورية والمدنية والشخصية كانت قد بلغــت في سورية أرقى مرتبة عرفها العالم، فأثرت البيئة الجديدة كثيراً على معاوية وجهزته ببعـــد نظـــر سياسي رجحه على منازعه. ومن هذه الحقيقة ندرك السر في أن معاوية، لا عثمـــان، أســس الدولة الأموية التي طورت الدولة في الإسلام تطويراً خطيراً[3].

لقد استفاد العرب والإسلام كثيراً من مجيئهم إلى سوريا، فالقاعدة الفكرية في هذا البلـد كانت قائمة على أن العقل كي يقتنع على المستوى النظري فلا بد له من الوصول إلى (الأدلـة) و(البراهين) القاطعة. ولقد كان هذا البحث عن (البرهان) مطلباً أساسياً اقتبسه السوريون مـــن

١ – محمد كرد علي: خطط الشام، ٦ أجزاء في ثلاث مجلدات، الجزء الأول ص١٣٦، مكتبة النوري – دمشق ١٩٨٣.
٢ – انطون سعادة: نشوء الأمم، بدون ذكر اسم ومكان وسنة النشر، الآثار الكاملة رقم ٥ ص١٢٧.
٣ – انطون سعادة: نشوء الأمم، مرجع سابق ص١٢٦.

الفكر اليوناني. فلم يكن هذا الفكر يقبل أية قضية ما لم يقتنع بها عن طريق دليل يفرض نفسه على العقل فرضاً. ولم يكن يكتفي بالنتائج الناقصة أو السلوك العملي الناجح، بل كان يبحث دائماً عن (الأسباب).

ولكي ندرك الفارق بين وجهتي النظر هاتين، نقارن بين الفلاح المدرب، وعالم الزراعة. فالفلاح الخبير يتبع أساليب معينة، معظمها مجرب أو موروث، تؤدي به إلى أن يجني محصولاً ناجحاً، ولكنه لا يحاول أن يتساءل: (لماذا) يؤدي اتباع هذه الأساليب إلى زيادة المحصول، بل ربما رأى ذلك سؤالاً عقيماً، ما دامت النتيجة المطلوبة – وهي المحصول الوفير – قد تحققت. أما العالم الزراعي فإن هدفه الأول هو البحث عن (السبب)، والنتيجة الناجحة ليست في نظره كافية، بل ليست هي الهدف المطلوب، وإنما الهدف الحقيقي هو (معرفة الأسباب). ومن أجل سعيه إلى هذا الهدف كان عالماً[1].

١ – د. فؤاد زكريا: التفكير العلمي، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣ ص١٣٩.

المسيحيون والحكم العباسي

بعد أن وصل الحكم الأموي إلى قمة مجده أخذ يضعف، وشهد منتصف القرن الثامن تحولاً خطيراً في السياسة في الشرق الأوسط حيث حولت الثورة العباسية أنظار العالم عن دمشق إلى منطقة ما بين النهرين، بعد أن برهن الأمويون عن عجزهم عن إدارة وتوحيد العناصر المتنوعة التي ضمتها إمبراطوريتهم المترامية الأطراف. ولهذا لم يكن مجيء العباسيين إلى السلطة مجرد تغيير في النظام، بل كان ذا أهمية كبرى في تاريخ العالم الإسلامي الواسع.

ولا نريد الدخول في تفاصيل الدوافع التي أدت بالعباسيين إلى التخلي عن الكوفة ثم الأنبار ثم المدائن، وإلى اختيار المنصور موقع بغداد واتخاذها عاصمة للدولة الفتية التي ستلعب دوراً رئيساً في أحداث العالم طوال خمسة قرون، حيث كان نقل العاصمة إلى بغداد إعطاء أهمية عظمى للكوادر المسيحية المثقفة، ذلك أن ثقافتهم العلمية وخبراتهم الإدارية أهلتهم للدخول إلى بلاط الخلفاء حيث أصبحوا أساتذة الفلسفة والعلوم.

وغيّر مركز ثقل العالم الإسلامي نحو الشرق حيث كانت إمبراطوريات كبرى قد تعاقبت منذ قديم الزمان، وأصبحت بغداد رمزاً للسلالة الجديدة حيث ساد الاهتمام بالاستقرار وبالتنظيم الداخلي لإمبراطورية عالمية، وغدت مدينة زاخرة بالإداريين والموظفين والتجار والعلماء، تحت ظل الخلفاء الذين تجسدت فيهم السلطات الدينية والمدنية، وساد في الدولة العباسية جو من البحث العلمي أتاح معايشة سلمية بين المسلمين وغير المسلمين، وخلف مناخاً من الحرية داخل الإسلام أدى إلى ظهور حركات دينية مختلفة ومتكاملة.

وقد وجد العباسيون في الفرس المهتدين وفي السريان العنصر المثقف الذي سيملأ دوائــر الدولة ويشغل مناصب مرموقة فيها، فقد كان الرعايا من النصـــارى ينتمـــون بالأكثريـــة إلى كنيستين سريانيتين هما الكنيسة السريانية والكنيسة الآشورية أو النسطورية، وكان لهما تـاريخ طويل في هذه البلاد قبل مجيء العباسيين، بل قبل مجيء الإسلام. إلا أن مجيء العباسيين فتح عهداً جديداً أمامهم. فإن الأمراء المسلمين استعانوا كثيرا بالمسيحيين للإدارة والتنظيم الاقتصـــادي في الدولة، وكان هؤلاء يشرفون على تدوين الوثائق الحكومية وتنظيم الإدارة. وكانوا على نوعين: منهم مسؤولون عن (كتابة الإنشاء)، أي كتابة الوثائق الرسمية بأسلوب رفيع ولغة عربية سليمة، وغيرهم مسؤولون عن (كتابة الأموال) وهم محاسبون أكفاء ومشرفون على تنظيم الضرائـــب. وكان نفوذ المسيحيين كبيراً في كلا الصعيدين، وذلك بالنظر إلى ثقافتهم الواسعة ومعرفتـــهم لغات عديدة، منها اليونانية والسريانية والعربية.

وأتاح المسيحيون للعرب المسلمين تعرف الفلسفة والعلوم الغربية، ولاسيما اليونانية منها، حيث كان هذا التعاون عسيراً في بدايته. ولكن مجيء البطريرك طيمثـــاوس الأول إلى رئاســة الطائفة الآشورية أولاه زخماً جديداً وانفتاحاً أوسع وفاعلية عادت بالخير والازدهار، فقد كانت له الشجاعة والفطنة لينقل كرسي ساليق وقطيسفون إلى بغداد. وقد نال حق السكنى في بغـداد وجعلها مقراً لكرسيه وهو امتياز سعى السريان أن ينالوه فلم يفلحوا. فقد نشأ حـــول مقــر البطريركية ببغداد المدعو بدير الروم حي للنصارى عرف بدار الروم.

من السريان إلى الإسلام

كما جرى الحال في سوريا حين دخول الجيوش الإسلامية – العربية إليها وتحول قسـم كبير من السريان إلى الإسلام، فقد جرى الأمر ذاته في العراق. ففي أوائل العصر العباسي اخـذ عدد السريان والفرس الداخلين في الإسلام يفوق عدد العرب المسلمين، حيث كـــانت قبـائل مسيحية ذات نفوذ كبير في الدولة على الصعيدين السياسي والثقافي، كالغساســـنة والمنـــاذرة اللخميين والعباديين وبني طي وغيرهم. وأصبح البعض من هؤلاء أشد عصبية للإســـلام مـــن العرب أنفسهم بحيث بلغت غيرتهم حد التعصب فاضطهدوا غير المسلمين، وكان مـــن أشـد المسلمين تعصباً في الصدر الأول أولئك النصارى واليهود الذين دخلوا في الإسلام. فيما نـــاصر

http://www.al-maktabeh.com

البعض الآخر من هؤلاء الحركات المتنوعة التي قامت في الإسلام مثل حركة الشيعة في العـــراق والخوارج في فارس.

وبعد أن فتحت الجيوش العربية سوريا، انفتحت أمام الفاتحين سهول العراق الخصبة إلى الغرب من دجلة. وقد رحب الفلاحون العراقيون بالفاتحين العرب ترحيباً لا يقل عن ترحيـــب الفلاحين السوريين وذلك لأسباب متشابهة، إذ كان العراقيون الساميون يـــرون في أســـيادهم الإيرانيين أجانب ممقوتين ويرون الفاتحين أقرباء لهم. و لم يطب العيش لأهل العراق وهم نصارى إذ ذاك في ظل الفرس وهم أتباع زرادشت[1].

إن تحول قسم كبير من السريان إلى الإسلام في العصر الأموي – كما جرى في ســـوريا – قابله نفس الشيء في انتقال قسم كبير من السريان إلى الإسلام في العصر العباسي. وهـــذا الانتقال أعطى فائدة كبيرة للعرب في نهضة علمية حضارية لم يكن لها مثيل من قبـــل، رغـــم النعرات والحركات المتطرفة التي حاولت أحياناً تعكير الأجواء في الدولة العباسية.

ورأى رجال الدين السريان أن للكنيسة دوراً تقوم به في المجتمع، وأن أحســـن طريقـــة للدفاع عن النفس ولإزالة كل شك حول الإخلاص، هي أن يضعـــوا إمكانـــاتهم وطاقـــات المسيحيين في خدمة البلاد، كما كان شأن المترجمين والأطباء والكتاب.

ذكرنا البطريرك طيمثاوس الأول، هذا رجل الدين الذي لا ينتسى في ذلك الزمان، فقـــد كانت له علاقات طيبة بل ودية أحيانا، بالخلفاء الذين عاصرهم، لاسيما المـــهدي وهـــارون الرشيد. فكان يطيب للرشيد أن يتحدث إلى طيمثاوس ويحاوره. ويقول صليبا (كاتب المجدل): (من جملة ما جرى له ذات يوم معه عند انقضاء المجلس، قال له: يا أبا النصارى، أجبني عمـــا أسألك باختصار: أي الأديان عند الله حق؟ فقال له مسرعا: الذي شرائعه ووصاياه تشـــاكل أفعال الله في خلقه. فأمسك عنه. فلما انفصل عن المجلس، قال: الله دره! لو قـــال النصرانيـــة، لأسأت إليه، ولو قال الإسلام، لطالبته في الانتقال إليه. ولكنه أجاب جواباً كلياً لا دفع له..)[2].

وعرف عن الخليفة المهدي (٧٧٥-٧٨٥) الطبع المرح والتعاطف مع المسيحيين، وكـــان هو نفسه يميل إلى العلم والشعر والفلسفة والموسيقى ويحترم العلماء كثيراً، ويخص طيمثـــاوس

١ – حتي، د.فيليب: تاريخ العرب، مرجع سابق ص٢١٣.

٢ – ابونا، الأب ألبير: التعاون بين المسلمين والمسيحيين في العهد العباسي الأول، عن: التقرير السنوي للجنـــة الخيريـــة لطائفة الكلدان بحلب لعام ١٩٩٧، دار الضاد للطباعة والنشر – حلب ص٥٢.

بتقدير فائق ويكلفه بترجمات ويدعوه غالباً إلى البلاط للمناقشات العلمية أو الدينية مع الفلاسفة الآخرين. وأحياناً كان النقاش يدور بين الخليفة والبطريرك حول مختلف الشؤون الدينية. وقـــد حفظ نص الحوار الذي دار بينهما، وفيه تظهر حرية كبيرة في تبادل الأفكار وموقف الخليفـــة المتسامح المنفتح، وعلى سبيل المثال، نورد مقطعاً وحيزاً من هذا الحوار:

حينئذ الملك المظفر قال لي: فماذا تقول إذن عن المسيح؟ من هو؟
فحاوبنا الملك قائلين: أن المسيح هو كلمة الله، الذي ظهر بالجسد لأجل خلاص العالم.
ثم سألني ملكنا المظفر: أما تعتقد أن المسيح هو ابن الله؟

فقلت: إننا نعتقد بذلك دون شك، لأن هكذا تعلمنا من المسيح نفسه، إذ هو مســطور عنه في الإنجيل والتوراة والأنبياء، أنه ابن الله. ولكن ولادته ليست كالولادة الجسدانية، بل هـي ولادة عجيبة تفوق إدراك العقل ووصف اللسان، كما يليق بالولادة الإلهية.. فإن المسيح هو ابن ومولود قبل الدهور، فلا نستطيع أن نفحص عن هذه الولادة، ولا أن ندركها، لأن الله غـــير مدَرك في جميع صفاته. ولكن نأتي بشبيه ما، مأخوذ من الطبيعة: فكلما تتَّلد الأشعة من الشمس والكلمة من النفس، هكذا المسيح، بما أنه كلمة إله، ولد من الأب قبل الدهور[1].

هكذا كان الحوار في العصر الأول حوار يتناول مختلف العقـــائد والشـــؤون الدينيـــة، كالثالوث والنبوءات والأعاجيب، وعن مسؤولية اليهود والبحث عن الحقيقة.. أنـــه نمـوذج للحوار المسيحي – الإسلامي، فيه يستخدم كل من الطرفين الحجج والبراهين الـــتي ســتصبح بعدئذ عناصر لتعليم مسيحي صحيح.

لقد كان عهد العباسيين الأوائل عهد التفاهم والانفتاح والتسامح تجاه مختلف التيـــارات الفكرية والمذاهب ولاسيما تجاه المسيحيين الذين كانوا لهم خير أنصار لدفـــع عجلـــة الثقافـــة والتقدم إلى الأمام، بما تيّسر لهم من الإمكانات الرائعة على مختلف الصُعـــد. وبذلـــك قدمـــوا للأجيال اللاحقة خير نموذج لتضامن المسيحيين مع سلطات البلاد وعناصرها المثقفة في ســـبيل بناء البلاد ورفع هامتها.

ومما يذكر هنا أنه كان قد استدعي في عهد سابق بعض الكتاب من الأنبار إلى المدينـــة المنورة لينشئوا الكتابة الليتورجية الإسلامية، أي الكوفية القرآنية التي تحمل دلائل واضحة علـى أصلها الآرامي. وتجدر الإشارة إلى أن كثيرين من هؤلاء الكتّاب المسيحيين كانوا يتخلون عـــن دينهم ويعتنقون الإسلام لنيل حظوة أكبر في أعين أسيادهم المسلمين.

---

١ – ابونا، الأب ألبير: التعاون بين المسيحيين.. مرجع سابق ص٥٣.

العلماء المسيحيون
وتعاضدهم مع العصر العباسي

إن اللغة العربية بكل العظمة الذي وصلته تدين لأولئك الذين مهدوا لها السبيل في طريق التقدم من أمثال متى بن يونس، ويحيى بن عدي، وعيسى بن زرعة، وأساتذتهم وتلاميذهم وزملائهم في المدارس والأديرة والأندية الفكرية في بغداد وسامراء، كما أنه يقتضي كذلك على الطب وعلم الفلك وخاصة الفلسفة المسماة عربية أن تقر بما للسريان والنساطرة من فضل عليها.

والنهضة الحضارية العربية لها روادها من أمثال الفارابي وابن سينا، والغزالي وابن رشد وابن طفيل وزملائهم في المشرق والمغرب من كبار رجال الفكر الإسلامي ابتداءً من القرن العاشر، كذلك الحال مع رهط العلماء الأفاضل في النشاط الفكري الذي بذلوه في الترجمة والتفسير والتأليف ممهدين السبيل أو كونهم بمثابة حلقة اتصال، من حيث انفرادهم بمعرفة لغات عديدة، بين الفكر الإغريقي القديم الوارد باليونانية والسريانية، والفكر المزدهر الذي عبر عنه، في ما بعد، باللغة العربية.

ويأتي هذا الزخم من قبل السريان بعد أن كان تيار الفلسفة والعلوم الذي توقف فترة في العرب، استأنفه الخلفاء العباسيون بمساعدة علماء مسيحيين، وكانت هذه العلوم قد تسربت في مدارس الشرق. ويذكر أوليري أن العلوم اليونانية انتقلت إلى العرب عن طريق خمس أقنية:

١-النساطرة الذين يعدون المعلمين الأول للعرب وأبرز من نقل إليهم علوم الطب.

٢-السريان الذين كان لهم الفضل الأكبر في إدخال الأفلاطونية الحديثة والتصوف إلى العالم العربي.

٣-مدرسة جنديسابور الزرادشتية وكان أشهر أساتذتها من النساطرة.

٤-مدرسة حرّان الوثنية التي امتزجت فيها البابلية بالهلينية.

٥-اليهود الذين أخذوا الطب عن النساطرة[1].

---

١ - أوليري، دولاسي ايفانز: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب، ترجمة وهيب كامل، مكتبة الخانجي-القاهرة ١٩٦٢ ص٦٢.

ولم يمنع دخول الجيوش العربية للعراق واستقرار الحكم من أن السريان ظلوا يتمتعـــون بحريتهم الدينية والفكرية ويتابعون نشاطهم العلمي والفلسفي. وقد كان دير قنسرين السرياني، على الضفة اليسرى من الفرات، مركزاً خطيراً من مراكز الدراسات اليونانية، وقد خرّج رجالاً كيعقوب الرهاوي وجورجيوس أسقف العرب. ومع أن الدولة العباسية، بعد ما اســتتب لهـا الامر، اهتمت للدراسات العلمية اهتماما بالغاً وساعدت على نقل العلوم الأجنبية إلى العربيـــة، فقد ظل السريان يتابعون نشاطاً مستقلاً، وظل يوحنا بن ماسويه الطبيب وحنين بن إسحق وابن العبري المعروف بأبي الفرج المتوفي سنة ١٢٨٦ للميلاد يؤلفون بالسريانية.

ويمكن وضع السريان في مسيرة تطور الفكر البشري كونهم الواسطة التي بهـا انتقلـت الفلسفة والعلوم اليونانية إلى العالم العربي. ولعل أهم ما قاموا به من نشاط كان في حقلي الطب والمنطق، وعنهم أخذ العرب هذين العلمين، فقام العلماء المسيحيون بدور رئيس في نقل الثقافـة والعلوم اليونانية إلى العالم العربي، ومن خلاله عادت إلى الغرب من جديد، وحققوا ترجمـــات سريانية ووضعوا كتباً علمية وفلسفية وشروحا وافية لمختلف الأبحاث والعلوم. وأظهروا بذلـك كفاءة عالية وشمولاً في المعارف فكانوا يجمعون أحيانا بين الطب والفلسفة والعلوم والرياضيات والدين معا، فقاموا بنقل التراث اليوناني إلى السريانية ومنها إلى العربية، وأحياناً نقلوها رأساً من اليونانية إلى العربية.

ولا يمكن تجاهل دراسات أبي قره مطران حران (٧٤٠-٨٢٠) الذي هذب اللغة العربية وحاول أن يخلق منها، على غرار اللغتين اليونانية والسريانية، أداة طيعة للتعبير عن جميع دقـــائق الأفكار الفلسفية والكلامية (اللاهوتية) وان يجعلها تلبي جميع مقتضيات تلك المجادلة الشفوية التي اضطر أبو قره إلى خوضها مع شيوخ الإسلام في أواخر حياته، أيام الخليفة المأمون (٨١٣-٨٣٣).

أما أبحاث ابن البطريرك مترجم الخليفة نفسه، وابن حيلان أستاذ الفارابي، وأبي ســـهل المسيحي أستاذ ابن سينا؟ والمتكلم (اللاهوتي) الشهير ابن الطيب الذي تخرج على يده عدد مـن كبار الفلاسفة والمتكلمين في القرن العاشر في بحثه الصغير في (المحبة) وهو الأول والوحيد الـذي وصفه باللغة العربية..فان هؤلاء لهم إسهامهم الكبير في النهضة العلمية العربية.

وعلى ذلك يمكن القول إن أول من وضع المؤلفات العلميـــة والأبحـــاث والدراســـات الكلامية (اللاهوتية) باللغة العربية التي أوقفت، منذ ظهورها على الشعر والخطب الحماســـية وغيرها من فنون البيان الشفوي، هم أولئك النصارى السريان المتضلعين من شتى اللغات.

http://www.al-maktabeh.com

الأطباء المسيحيون في العهد العباسي

عمل المسيحيون من أطباء وعلماء فلك وفلاسفة ومتكلمين (لاهوتيين) على تلقين وتعليم أهل الفكر من رجال العرب والناطقين بالضاد، ومهدوا لهم سبل التقدم والرقي في طريق العلم والمعرفة. وقد ضمنت الكنيسة المسيحية لنفسها، بفضل أطبائها، حالة جيدة داخل الدولة العباسية. فإن المسلمين أولوا الطب وممثليه دوماً اعتباراً كبيراً، لأن الطب يضاهي عندهم وينافس علم الكلام أهمية، كما يقول المثل (العلم علمان: علم الأديان، وعلم الأبدان)، لذا كان لهؤلاء الأطباء المسيحيين تأثيراً كبيراً في الطب العربي وفي تاريخ الكنيسة وفي الدولة العباسية.

وأول مستشفى لدراسة الطب في ديار الإسلام كان مستشفى بختيشوع الذي أسسه، في بغداد إبان القرن الثامن، الأطباء المسيحيون الذين كانوا، منذ زمن طويل، على إدارة المستشفى الشهير في جنديسابور. وقد استدعي جرجس بن بختيشوع من جنديسابور لمعالجة الخليفة المنصور سنة ٧٦٥، وأفلح في شفائه من مرض في معدته. فغمره الخليفة بالهبات وأرسل له ثلاث جوار روميات رائعات الجمال، إلا أن جرجس أعادهن للخليفة قائلاً: إننا نحن المسيحيين، ليس لنا سوى امرأة واحدة، وطالما هي في قيد الحياة، لا يسمح لنا باتخاذ أخرى. فدهش الخليفة لهذا الكلام، ومنذئذ منح جرجس الحرية في معاينة نسائه.

ولقد استمر آل بختيشوع في خدمة الخلفاء أكثر من قرن. وقد لعب جبريل دوراً بارزاً لدى الخلفاء وبين أبناء الشعب، فمارس الطب في عهد هارون الرشيد الذي استدعاه ليشفي إحدى محظياته من شلل أصاب ذراعها، فلجأ الطبيب إلى علاج نفساني وتمكن من شفائها. وبذلك حظي بثقة هارون الرشيد، حتى قال يوماً (من له سؤال فليعرضه على جبريل، وسأفعل كل ما يطلبه مني). وقد استفاد طيمثاوس من نفوذ هذا الطبيب لدى البلاط، حتى قال عنه إنه بمثابة اليد له والشفتين واللسان والضمير والعقل، وأنه درع للمسيحيين في البلاط. ولكن هذا لم يمنع طيمثاوس من رشقه بالحرم حينما خالف الشريعة المسيحية في شأن الزواج. وأننا نجد بعضاً من أفراد هذه الأسرة في خدمة البلاط حتى القرن الحادي عشر.

وكان الخليفة المنصور أول من اهتم بالعلوم اليونانية، فأنجز له جرجس بـــن بختيشـــوع الترجمات الأولى إلى العربية. وترجم طيمثاوس نفسه بعض كتب يونانية إلى العربية.. أما الـذي اهتم حقاً بهذه النقول فهو الخليفة المأمون الذي جمع مخطوطات كثيرة وأسس في بغداد (بيـــت الحكمة) حيث وفّر للعلماء مكتبة عامرة بالمخطوطات، وحيث كثر النساخ والمجلـدون وأدوات البحث العلمي وحتى مرصد. وأرسل الخليفة وفداً برئاسة حنين بن اسحق، إلى الروم لجلـــب مخطوطات نادرة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والرياضيات والطب[1].

وكانت أول عملية تشريح أجريت في العالم الإسلامي هي التي أجراها في عـــام ٨٣٦، السرياني يوحنا بن ماسويه طبيب المعتصم. وكان المريض، عندئذ، قرداً كبيراً كان أمير ليبيا قـد أهداه إلى الخليفة. وعلى اثر هذه التجربة التي ازداد بها خبرة كتب ابن ماسويه أول دراســة في هذا الموضوع باللغة العربية.

وفي مطالعة لما كتبه الجاحظ عن الطبيب المسلم أسد بن جاني نلمس ما كان للأطبـــاء المسيحيين من شهرة، يقول: كان طبيباً فأكسد مرة، فقال له قائل، السنة وبئـــة، والامـــراض فاشية، وأنت عالم، ولك صبر وخدمة، ولك بيان ومعرفة فمن أين تؤتى في هذا الكساد؟ قـال: أما واحدة، فاني عندهم مسلم، وقد اعتقد القوم قبل أن أتطبب، لا بل قبـــل أن أخلـــق، أن المسلمين لا يُفلحون في الطب. واسمي أسد، وكان ينبغي أن يكون صليبا ومرايل (ميخـــائيل) ويوحنا وبيرا (بطرس). وكنيتي أبو الحارث، وكان ينبغي أن تكون أبا عيسى وأبا زكريا وأبـــا إبراهيم. وعليّ رداء قطن أبيض، وكان ينبغي أن يكون رداء حرير أسود. ولفظي لفظ عـــربي، وكان ينبغي أن تكون لغة أهل جنديسابور، أي السريانية[2].

وذكر ليكلير في كتابه (تاريخ الطب العربي) بين الأطباء في القرن العاشر: ٢٩نصرانيـــاً، و٣يهود، و٤وثنيين، من حرّان. وفي القرن التالي، أصبح النصارى ٣، واليـــهود ٧، ثم انتقـــل الطب بعدئذ إلى أيدي المسلمين[3].

هذا الجو الذي أشاعه العلماء المسيحيون استمر في بغداد حيث ضم (بيت الحكمة) عدداً كبيراً من العلماء المسيحيين والمسلمين، وشرعوا يعملون في جو من التآخي والحرية في التعبـــير

١ - ابونا، الأب ألبير: التعاون بين المسيحيين.. مرجع سابق ص٥٠.
٢ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء، دار الفكر-بيروت ص٨٥.
٣ - ورد ذلك عن: فاخوري، حنا - الجر، خليل: حركة النقل بعد الفتح الإسلامي، مجلة المســـرة-حريصـــا السنة ١٩٥٨/٤٤ شباط ص١٠١.

عن آرائهم، تحت رعاية المأمون الذي وفّر التعايش السلمي بين مختلف فئات المثقفين في البلاد، وسمح لهم بالتعبير عن آرائهم بحرية في مناقشات دينية وفلسفية في جو تفاعلي.

إن الجو الذي لاقاه العرب من السريان حين أتت جيوشهم إلى العراق واستقرارهم فيه وقيام دولتهم، جعل الإدارة، وهي دعامة الحكم العباسي تستند بخاصة إلى الكتاب المسيحيين، وأن صحة الخلفاء كانت تحت رعاية أطباء مسيحيين، وان الثقافة والعلوم اليونانية كانت رهن كفاءات مترجمين وعلماء مسيحيين. وقد قام هؤلاء المثقفون بدور هام أيضاً في كنائسهم، فكانت لهم اليد الطولى في إدارة شؤونها وفي سير انتخابات رؤسائها. وكانوا بذلك حلقة وصل بينها وبين السلطة الحاكمة، وعنصراً هاماً لخلق جو من التفاهم والسلام بين الديانتين المسيحية والإسلامية.

ولقد تمتع المسيحيون أثناء الحكم العباسي بحرية كبيرة، حتى أنه عيّن عبدون بن صاعد وزيراً في الشطر الثاني من القرن التاسع، ويحكى عنه أنه دخل على قاضي بغداد فقام له ورحب به فأنكر الشهود ذلك (نقلاً عن ياقوت، أدباء ج٢ ص٢٥٩) وكان للمتقي (٩٤٠-٤٤) وزير نصراني (نقلاً عن التنوخي، الفرج بعد الشدة، القاهرة ١٩٠٤ج٢ ص١٤٩) كما كان لأحد بني بويه وزير اسمه نصر ابن هارون (انظر مسكويه، تجارب الأمم، نشر القاهرة ١٩١٥ ص٤٠٨)[1].

وإذا رجعنا إلى العهود المتلاحقة من مغول ومماليك وعثمانيين نرى أن الساحة الثقافية العربية، وخاصة في الشرق الأوسط، قد خلت من الإبداع، ومن ثم فإن السريان أصابهم ما أصاب العرب من كوارث، وليس لدينا إلا أخبار متناثرة في زوايا هذا التاريخ المشؤوم الأسود لقلة المراجع الثابتة، وندرة الوثائق الكافية[2].

ويمكن تحليل ذلك أنه منذ نهاية القرن الرابع الهجري، بدأت عوامل الضعف والانحلال تدب في كيان العرب، وتوالت عليهم المحن والنكبات، فتعرضوا للموجات التركية المتوالية التي لم تعر للفكر والعلم أي اهتمام يذكر، ثم جاءتهم الحروب الصليبية من الغرب، وبقيت بلاد الشام نحو قرنين من الزمان تحت حكم الاوربيين، وفي القرن السابع للهجرة اكتسحت موجات المغول بقيادة هولاكو العالم العربي، واحتلت بغداد في ١٠ شباط ١٢٥٨ ودخلوا دار الخلافة، وأسروا الخليفة وأجبروه أن يبوح لهم بمواضع الذخيرة أو الدفائن السرية، وبعد ذلك أعدموه بخنقه بين الزرابي، وذلك لأن المغول كان لديهم خوف موروث مصدره خرافي من إراقة الدماء الملكية.

---

١ - حتي، د.فيليب: تاريخ العرب، مصدر سابق ص٤٢٤.

٢ - عبده، سمير: السريان: قديما وحديثا، المعهد الملكي للدراسات الدينية - عمان ١٩٩٧، ص٦٣، مرجع سابق.

إن سقوط بغداد وما صحبه من زوال الخلافة العباسية التي كانت لا تزال لها بعض الهيبة والنفوذ الروحي، أنتج كثيراً من الهيجان والثورات في بلاد ما بين النهرين، فقد ثارت ثائرة المسيحيين – النساطرة منهم واليعاقبة – الذين كانوا لا يزالون كثيري العدد وخصوصاً في شمال البلاد، وكذلك في بغداد، وكذلك الشيعة الذين كانوا يعيشون بصورة رئيسية في الجنوب[1]. وعاثت فساداً في البلاد، وأحرقت ما في دور العلم والأدب من كتب ومخطوطات ثمينة. وبعد ذلك بقرنين زحف تيمورلنك على دمشق فمثل الدور الذي قام به هولاكو في بغداد.

وفي مطلع القرن السادس عشر الميلادي حكم الأتراك العثمانيون البلاد العربية، وظلت طوال القرون الثلاثة الأولى من حكمهم في عزلة تامة عن العالم الخارجي، بينما شهدت أوربا نهضة علمية وأدبية رافقها اكتشافات جغرافية، وحركة استعمارية ضمنت لها السيطرة على العالم الجديد وعلى العديد من أقطار العالم القديم في أفريقيا وآسيا، واجتاحتها في القرن الثامن عشر ثورة صناعية وأخرى سياسية واجتماعية قلبت أوضاعها رأسا على عقب، وأعطتها مركز القيادة للعالم بأسره. وبينما كانت هذه التطورات تجري في أوربا كان العرب منغلقين على أنفسهم في ظل الحكم العثماني، فلا اختراع ولا تقدم في العلوم والصناعة، بل جمود فكري.

---

١ – شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ترجمة خالد عيسى، دار حسان –دمشق ١٩٨٢ ص٤٧.

سوريا
الآرامية السريانية العربية

إن بناء شخصية الفرد في إطار مجتمع ما مرتبط ارتباطاً جذرياً بالسمات الثقافية الخاصة بهذا المجتمع، ونقصد بالسمات الثقافية نظام القيم الأساسية التي تسود في المجتمع وتحكم طبيعة العلاقات فيه. فالإنسان الفرد يعيش ثقافياً داخل ذلك الوجود الحي للثقافة الاجتماعية التي تشكل هويته الذاتية وهو في داخل هذا الوجود مبدع بشكل رمزي العالم الذي يحيا فيه، فالحقائق التي يعتقد بها والأحكام التي يصدرها والادراكات التي يكونها ما هي إلا أفعال أو ردود فعل تصدر عنه من خلال علاقته بنظام الثقافة الذي ينتمي إليه.

والهوية العربية التي تسود الشعب السوري هي مجموع الحقائق التي تؤلف نسيجاً حضارياً يتميز به الوجود العربي المنجز تاريخياً بجدل إنساني على الأرض التي رسمت حدودها بالتفاعل مع الأمم والشعوب التي عاشت عليها. هوية تستوعب الهويات الأسرية والإقليمية والمذهبية والسياسية والاجتماعية لشعوب المنطقة، ويتملك الفرد العربي هويته العربية بارتقائه إليها ارتقاء يشمل تلك الهويات، ولا يلغيها، ويمنحه الشعور بالانتماء إلى أمته العربية وهو شعور يتنامى بتنامي الوعي.

والحقائق التي تتميز بها هويتنا العربية متداخلة ومتوحدة، ويمكن لنا أن نرى فيها ثلاثة محاور رئيسة: الأول، التكوين التاريخي العريق الموسوم بالاستمرارية والشمول والانفتاح، والثاني اللغة العربية الفصيحة، فهي لغة تلقي المعرفة والاتصال بتراث الأمة وهي لغة الخطاب الديني والأدبي والعلمي ولها أبعاد اجتماعية ونفسية وتاريخية وسياسية وبما يتحقق وجود الهوية العربية

وهي رابطة نسب وانتماء قديماً وحديثاً، وعن ذلك قال الرسول العربي (ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي)[1].

صحيح أننا نتكلم العربية ولكن أين الجذور في ذلك؟

أسئلة كثيرة وضعنا جواباً لها في كتابنا (السريانية-العربية: الجذور والامتداد)، ولابـأس من القول هنا أن هناك زواجاً أبدياً بين السريانية والعربية قلما نرى مثيلاً له في لغات اخــرى، ومن يبحث عميقاً في ذلك سيرى مدى ما أخذت هذه اللغة من تلك ومـاذا أعطـت هـذه للأخرى. يكفي القول أن أكثر من نصف مفردات العامية العربية في سوريا الطبيعية وقسم من الحجاز هي مفردات اللغة السريانية السليمة، عدا الكلمات وأصولها المتداخلة في هذا الموضوع.

ومع أن اللغة العربية أحدث اللغات السامية آداباً فإنها قد احتفظت بخصائص اللســان السامي الأصل-بما في ذلك التصريف- أكثر مما احتفظت العبرية وأخواتها من اللغات الســامية الأخرى. ومن هنا كانت اللغة العربية أحسن مدخل لدراسة اللغات السامية.

والمراحل التي قطعتها هذه البلاد في انتهاج لغتها مرت في أدوار عديدة سنذكر مثل لهـا من لبنان حيث تكلم في أولى مراحله الفينيقية كقومية-وأتقن لغــة أشــور أم المدنيــة الأولى ككونية، وتكلم الآرامية كلغة المحيط المسيطرة على كل منطقته في ذلك الحين.

ثم تكلم في **المرحلة الثانية**-بعد الفتح اليوناني-الآرامية كقومية واليونانية-لغة الفــاتح- ككونية والآرامية الشرقية كلغة محيط.

وفي **المرحلة الثالثة**-بعد الفتح الروماني-تكلم السريانية كقومية واللاتينية-لغة الفـاتح- ككونية، والآرامية الشرقية كلغة محيط.

وفي **المرحلة الرابعة**-على عهد فخر الدين-ظل يتكلم السريانية وإلى جنبــها اللبنانيــة كقومية، والإيطالية-لغة الدولة الصديقة-ككونية-والسريانية كلغة محيط.

وفي **مرحلة ما قبل الاستقلال** تكلم لبنان اللبنانية فقط كلغة قومية والفرنسية فالإنكليزية كلغة كونية والعربية كلغة محيط[2].

ويلاحظ من هذه المراحل التي ذكرناها أن اللغة العامية اللبنانية اعتبرت كلغة مســتقلة حين تصنيف اللغات المستعملة. وفي الوقت الحالي غدت اللغة العربية وهي اللغة الرسمية تتبعــها (اللبنانية) والفرنسية والإنكليزية كلغات كونية.

---

[1] – صحيفة البعث–دمشق العدد١١٠٦٤، ١٢/١١/١٩٩٩، ص٧، د. فاروق اسليم: الهوية العربية والتوجهات القومية.

[2] – الأب سبيريدون الرياشي: مركز لبنان الثقافي في العالم، مجلة المسرة–حريصا السنة٣٢/١٩٤٦ تشرين الأول ص٣٤٣.

http://www.al-maktabeh.com

ومع الانحسار الذي أصاب اللغة السريانية، فإن ذلك لم يحل دون أن تترك طابعها الدائم على اللغة العربية السورية اللبنانية. وهذا الطابع هو الفارق الأساسي الذي يميز هذه اللهجة عن لهجات البلدان المجاورة، وهو واضح في التراكيب والمفردات والأصـــوات اللغويـــة. علـــى أن المفردات في اللهجة الدارجة وعند المزارعين غنية بصورة خاصة بالألفاظ المستعارة من السريانية *.

إن الإغريق قبل العرب حاولوا القيام بغزو ثقافي فيما وصلوا إليه من البلاد فلم يوفقـــوا، بل تأثرت حضارة الإغريق الهلينية بالعناصر الثقافية التي وجدتها في البلاد التي فتحها الاسكندر، وأصبحت تعرف بالحضارة الهلنستية أي الشبيهة بالهلينية. وحاول الرومان مثل ذلك في البـــلاد التي فتحوها، وحاولوا فرض لغتهم اللاتينية دون جدوى، وظلت اللاتينية لغة الرومان وحدهـــم يتكلمها الرومان في مدنهم ومعسكراتهم ولا يفهمها غيرهم، أما انتشارها بعد ذلك فكان نتيجة لانتشار المسيحية، فقد استعملت المسيحية في أول الأمر اللغة السريانية، وبها كتبـــت بعـــض الأناجيل الأولى. والإغريقية وقد كتبت بها بعض الأناجيل ورجال بعض آبـــاء الكنيســـة، ثم استعمل دعاة المسيحية وقساوستها وأساقفتها اللاتينية في روما وما تبع كنيستها من بلاد وسط أوربا وغربها، فانتشرت اللاتينية مع اتساع مدى المسيحية وكنائسها، ولكنها ظلت لغة دين وكتابة أدبيـــة وكتابات رسمية دون أن تصبح لغة عامة شعبية، ثم اختلطت مع اللغات المحلية وظهرت اللغات الرومانيـــة كالإيطالية والبروفنسية ثم الفرنسية والإسبانية والبرتغالية. أي أن اللاتينية حققت نصراً جزئياً لا يعدل قـــط انتصار العربية الساحق في البلاد الإسلامية، وهذا أكبر مثل للغزو الثقافي عرفه التاريخ[1].

والعرب لم يضعوا أية سياسة لنشر العربية، بل كان القرآن الكريم هو دافع الناس الأكبر إلى تعلمها، ثم تكفلت اللغة العربية ببقية التحويل اللغوي بفضل ما امتازت به من فضائل داخلة في صلبها وتركيبها، أي أن الغزو الثقافي هنا كان في الحقيقة عمليا انتشار ثقافي: ديني متمثل في الإسلام والقرآن ولغوي فكري متمثل في انتشار اللغة العربية وكتابتها وآدابها.

وبين هذا وذاك لازالت السريانية لغة يتخاطب بها المسيحيون والمسلمون، أي أنها تـــأخذ منحى قومياً في السياق التاريخي الذي نشأت به، حيث عرف السريان انهم السوريون منذ آلاف السنين، ولازالت هذه اللغة تتخبط قبل أن تندثر بفعل ألف عامل وعامل أراد لها الفناء، وهو ما بحثنا شانه في سائر الكتب التي عُنْون لها عن السريان والسريانية.

* – يذكر د. حتي، في كتابه تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق، أن أسماء الأشهر التي نتناولها تحـــدرت مـــن السريانية مباشرة وكانت هذه قد تلقت أكثرها من أصل اكادي، ومثال ذلك: كانون الأول والثاني: كانون معنـــاه الموقد، شباط: الضارب والمهلك، آذار: تغييم، نيسان: العلم أو الحرب، أيار: إنتاج الحبوب، حزيـــران: الحصـــاد، تموز: وليد الماء العذب، آب: العصب، أيلول: التهليل، تشرين: تكريس (الى اله الشمس).

1 – د. حسين مؤنس: الحضارة، سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١ ص٦٠ و٦١.

ســوريــا

يتناول التاريخ نشاط الإنسان في الزمان والمكان. أي في أن الجغرافيا تكــون العنصــر الثالث، ولكننا في دراساتنا نهمل الجغرافيا إهمالاً واضحاً، ويندر أن توجد خرائــط في كتــب التاريخ. وأن وجدت فهي صورية لا تفيد في شيء أما الأطلس التاريخي فهو في مرحلة أولية جداً.

والمهم أن الدراسات التاريخية تهمل الجغرافيا عادة وهذا يفقد التاريخ وضوحه، ويقلــل من شأن الأرض في وعي الدارس، وهو ما نشكو منه في كثير من المناسبات[1]، خاصة في تنــاول موضوع كالذي نحن بصدده. ومع هذا لا يمكن تجاهل تاريخ سوريا في الوقت الحالي، فلم يكن هذا التاريخ في أي عصر مضى موضع دراسة عميقة وأبحاث واسعة-مع كل ما يرافــق هــذا التاريخ من نواح أثرية وأنثروبولوجية ودينية وأدبية واقتصادية وسياسية وجغرافية-كما جرى في القرن الأخير.

لقد قيل الكثير عن اسم(سوريا)، وحسب أحد المصادر فإن اليونان والرومان هــم أول من أطلق اسم (سوريا) على البلاد الشامية. وبقي هذا الاسم مصطلحاً غريباً حتى أواسط القرن التاسع عشر، حين دخل في المصطلح العربي والعثماني. وفي عام ١٨٦٤ صدر نظام الولايــات الجديد، فأصبحت ولاية دمشق (ولاية سوريا). وكان العرب يطلقون اسم (سوريا) في الأصــل على القسم الأوسط من وادي العاصي (عند حمص وحماة) دون غيره من البلاد الشامية[2].

ويمكن القول أن سنة ٣١٢ق.م تعتبر ميلاد الدولة السورية وبدء التاريخ السلوقي الــذي دعاه السوريون واليهود التاريخ اليوناني في عهد ســلوقس الأول (٣١٢-٢٨٠ق.م) الملقــب نيكاتور، وأصبحت إنطاكية* التي بناها على العاصي وسماها باسم والده مقر حكومة ســورية، وهكذا ظهر اسم (ملوك سورية)، واعتبر إيجاد تقويم رسمي أعظم مأثرة للسلوقيين بعد تأسيس المدن.

---

١ – عبد العزيز الدوري: الهوية الثقافية العربية والتحديات، مجلة المستقبل العربي-بيروت ٢٤٨، ١٩٩٩/١٠ ص١٣.

٢ – د. كمال صليبي: تاريخ لبنان وفلسطين، مرجع سابق ص٣٠٩.

* – ظلت إنطاكية عاصمة سوريا لألف عام، منذ القرن الثالث قبل الميلاد لغاية القرن السابع ميلادي، وكــان خرابهــا عام ١٢٦٨ على يد الملك الظاهر بيبرس، آخر خلفاء الدولة الايوبيين، وقد انتزعها من أيدي الصليبيين وهجرهــــا النصارى و لم تعد تصلح مقاما للبطاركة، حيث اضطر البطاركة الإنطاكيون أن يجعلوا مقامهم في قبرص قبل نقلــها إلى داخل سوريا الطبيعية.

وقد أدخل بومبي سنة ٦٤ق.م سورية الجغرافية والتقليدية كلها تحت اسم واحد هو (ولاية سورية Provincia Syria) وحلت ولاية سورية محل مملكة سورية وأصبحت عاصمتها إنطاكية بينما جعلت كيليكية ولاية قائمة بذاتها. وسمح للملوك العرب بالبقاء على أن تقتصر سلطتهم على ممتلكاتهم الأصلية وأن يدفعوا جزية سنوية. ومع ذلك احتفظ ملك الأنباط بدمشق مقابل مبلغ ضخم من المال[١].

وعندما اتخذ المسيحيون الآراميون لهجة أديسا (الرها) وجعلوها لغة الكنيسة والأدب والتعامل الثقافي صاروا يعرفون باسم سوريين واصبح لاسمهم القديم-أي الآراميين-مدلول وثني غير مستحب في عقولهم، ولذلك تجنبوه بوجه العموم وحلت محله التعابير اليونانية وهي سوري Syrian أو سرياني، ونخالف ما ذهب إليه د.فيليب حتي حين اعتبر سرياني Syriac بالنسبة للغة، فهذا المصطلح يخص أبناء الطائفة السريانية، فيما مصطلح سرياني يضم المسلم والمسيحي اللذين من أصل سرياني آرامي، و(السوري) تعني كل من يحمل الجنسية السورية مهما كان أصله.

ويذكر د. حتي أن اليونان كانوا يسمون بلاد الشام آرام (سوريا)، وكثيراً ما يسمى سكان البلاد سوريين ولغتهم سورية في الترجمة السبعينية للتوراة Septuagint وكذلك في الترجمة اللاتينية الشائعة Valgate. وفي التعبير الحديث تقتصر كلمة (سريانية) على لهجات اديسا والمناطق المجاورة[٢]، كما أن هناك قرى عديدة في سوريا تتكلم السريانية سنأتي على ذكرها في سياق الكتاب، إضافة إلى عدة كنائس سريانية الأصل تقيم بها صلواتها.

وكثيراً ما اختلط الأمر على القارئ بين ترجمة مصطلح SYRIAN سريان و ASSYRIAN وتعني آشوري، حتى أن البعض في بدايات القرن العشرين كان يقول عن مهاجري سوريا إلى الولايات المتحدة Assyrian.

لقد رأى البعض أن لفظة سريان ما هي إلا نحت من الأصل (اسور) واسمه في بعض اللغات الآرية اسور، ثم تحول إلى أسير وقالوا اسيريان ثم حذفوا الألف واختصروا بقولهم سريان (بضم السين أو كسرها)[٣].

---

١ – د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، مرجع سابق ص٣٠٩.

٢ – د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الأول، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة-بيروت ١٩٨٢ ص٤ و١٨٥.

٣ – د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الثاني، مرجع سابق ص١٤.

إلى ذلك لم يعرف من السوريين منذ فتح الاسكندر الهم فقدوا طابعهم القومي أو أضاعوا لغتهم الأصلية أو أهملوا دينهم السامي أو سلكوا مخلصين المنهج اليوناني الروماني في الحياة. فالحضارة الهلينية لم تكن يوماً أكثر من طلاء خارجي، و لم تؤثر في غير النخبة من أهل المدن. أما سواد السكان فقد كانوا ولابد يعتبرون الحكام غرباء عنهم، وهذه المجافاة ما بين الحاكمين والمحكومين قد استفحلت ولاشك بداعي سوء الحكم وفداحة الضرائب. وغالب الظن أن السوريين من أبناء القرن السابع قد اعتبروا العرب المسلمين أقرب إليهم عنصراً، ولغة، وربما ديناً أيضاً، من أسيادهم البيزنطيين الممقوتين[1].

وإذا كانت مصر وحدت بقبضة فرعون والعراق مقسوماً بين سومر واكاد أولا ثم بين الكلدانيين وأشور، فإن وضع سوريا كان مختلفاً عن الآخرين.. صحيح توفرت لها كل العنصر من عرق ولغة (السريانية الآرامية) وثقافة لتكون وحدة قومية، إلا ألها لم تكوّن قط وحدة سياسية بسبب انقساماها الداخلية، فألفت في خلال فترة من الزمن، دويلات مستقلة، واندمجت في أغلب الأحيان في إمبراطوريات واسعة ولكن بدون أن تفقد شخصيتها. فقد سيطرت لغتها في العهد الفارسي وأصبحت اللغة الدبلوماسية الدولية من مصر إلى الهند، ففي عهد داريوس الكبير (٥٢١-٤٨٦) جعلت الآرامية اللغة الرسمية بين مقاطعات الإمبراطورية الفارسية. وبعد اسكندر المقدوني أمست سوريا قاعدة الحكم لأعظم خلفائه. أن مثل هذا الفوز الذي حققته لغة لا تدعمها سلطة إمبراطورية من أهلها ليس له مثيل في التاريخ. وقد كان باستطاعة سوريا أن تصبح أمة قوية لو توفرت لها شخصية قوية لتجمع بين ساحلها وداخلها، بين شمالها وجنوبها، بين مدلها وأريافها، وما أخر سوريا إلا تكاثر الرؤوس فيها. ألم يقل شكري القوتلي آخر رئيس للجمهورية السورية قبل الوحدة السورية-المصرية ١٩٥٨-١٩٦١ إلى جمال عبد الناصر إنني أسلمك رؤوس أربعة ملايين زعيم سوري ويقصد بذلك سكان سوريا آنئذ.

لقد احتلت سوريا، على مدى العصور، مكانة فريدة في تاريخ العالم، وقد كان فضلها على رقي البشرية من الناحيتين الفكرية والروحية احل شأناً من فضل أي بلد آخر خصوصاً وألها كانت تشمل فلسطين ولبنان ضمن حدودها القديمة. وربما كانت سوريا أكبر بلد صغير على الخريطة؛ فهي صغيرة جداً في حجمها ولكنها عالمية في تأثيرها. يكفي القول هنا أن السوريين القدماء لم يتحفوا العالم بأبدع الأفكار وأرفعها فحسب وإنما أوجدوا وسيلة للتعبير عن هذه الأفكار بتلك العلامات البسيطة المظهر ذات المفعول السحري التي تسمى الأبجدية والتي بواسطتها دونت أعظم الآداب العالمية وبقيت شاهدة على الحضارة.

---

[1] - فريد نزهه، مجلة الجامعة السريانية-بوينس ايرس، العدد الثالث ١٩٣٤ ص٣.

http://www.al-maktabeh.com

العبور إلى الآرامية

الشعب السوري، العربي الحاضر، المنتمي في أصوله التاريخية إلى الآرامية والسريانية، شعب عريق بلغ من العمر آلاف السنين، سجل صفحة ناصعة مشرقة في كتاب الحضارة البشرية.. أن هذا الشعب الآرامي السرياني العربي لازالت جذوره مزروعة في أرض أجداده، في منطقة الهلال الخصيب، وعلى رأس ذلك اللغة التي ينطق بها في عمومياته وفي أسماء الأمكنة والقرى والمدن وغير ذلك.. أنها تنطق باسمه وعظمته وحضارته وتتكلم عن دوره الحضاري في مسيرة الإنسانية، فلو حفرنا الأرض بعمق متر واحد فقط لظهرت آثار أجدادنا وعرفنا مدى عراقتنا.

إن اللغة السريانية-لغة سوريا القديمة-التي يتكلمها الآن أفراد من طوائف مختلفة، وزاد عمرها على أية لغة أخرى قديمة لا زالت تنطق-لغة سادت أهم مناطق العالم، ذلك أن تاريخ سوريا بمفهومها الجغرافي هو من جهة معينة تاريخ العالم المتمدن بصورة مصغرة، وهو عبارة عن مقطع بياني لتاريخ مهد حضارتنا ولجانب هام من تراثنا الروحي والفكري.

ولاشك أن سوريا مرت بها عدة حضارات، ولكن ما يمكن تبيانه من هذه الحضارات، أو لمس وجوده، هو في الحضارة العربية، وبشكل يكاد يكون منسيا في الظاهر، وهو الحضارة السريانية، الممتدة في العمق إلى ٣٥٠٠ سنة في تسميتها الأقدم الآرامية*، وهذه الحضارة هي التي أعطت لهذه البلاد اسمها (سوريا)، وكان انتشار الثقافة الآرامية-السريانية مرادفاً ومشيراً إلى هذه البلاد.

وليس فيما سوف نطرقه أي انتقاص للحضارة العربية التي احتضنها الآراميون السريان احتضان الأم لابنتها-وهو ما تطرقنا إليه في العديد من مؤلفاتنا عن ذلك-وسوف نتطرق إليه لاحقاً بمزيد من المعلومات، بل أن غايتنا تعميق وعينا لتاريخنا وإدراك ما خفي عنه. و(المصالحة الكاملة بين القومية السورية والعروبة هي المسلك/التحدي الأول)[1]، فنحن نرحب بالتنوع الذي قد يتصل بالبيئات المختلفة أو ببعض التراث في إطار العروبة الشاملة حيث يكسبها حيوية وغنى، ذلك أن فترات الأزمة تدعو إلى فحص

* – الآرامية والسريانية اسمان مترادفان لشعب واحد ومدلول واحد، يفصل بينهما العامل الزمني فقط، غير أن الآراميين لما تنصروا اهملوا اسمهم التاريخي (أرمويو *Oromoyo*) لصالح تسمية (*Suryoyo*) التي تعني الارامي المسيحي. وعليه تكون التسمية الآرامية أبعد جذوراً أو أكثر شمولاً وأقدم عهداً من التسمية السريانية.

عن مجلة ارام-استوكهولم العدد الأول ١٩٩١ ص١٢٣ مرجع سابق.

[1] – انيس صايغ، صحيفة السفير-بيروت ١٩٩٨/١١/٢٠، العدد ٨١٥٥ ص٢٢.

أعمق للواقع، وهذا يدعو إلى النظر إلى جانب مهم من الثقافة العامة هو التاريخ، التاريخ الحي في النفـــوس والأذهان، وإلى إعادة بحث التاريخ. وليس الغرض العودة إلى فترة من الماضي أو السعي لإحيـــاء ظـــاهرة فيه، بل المراد تحقيق فهم أعمق لمكونات وضعنا، ولإطلاق الطاقات في الحاضر.. أي ليـــس الغـــرض أن نحكم التراث في شؤوننا، بل أن نخضع التراث للتحليل والتقييم وأن نفيد منه بوعي في حياتنا الحاضرة بـــدل أن يختلط الوعي واللاوعي فيه.

وكل دراسة لا تؤدي إلى نتيجة محسوسة أو فائدة ملموسة، أو تقارب بينها وبين الحقائق الفكرية، وتقوم بها السلبية محل الإيجابية، يكون أمرها كمن يحاول، عن طريق الكذب العقلـــي، الاستجابة السريعة لعاطفة فورية أو نزعة نفسية ليس فيها منطق ولو من باب الاحتمال، فـــإن المنطق الحق من يبقى رأيه داخل حدود الواقع ولا يتعداه إلى الجسور النفسية التي يعبر عليـــــها البعض إلى غير ما شيء وينساقون بعامل التيه النفسي مكرهين.

إن هناك مسار تاريخي حاد عن السياقات المنطقية فيما يتعلق بتسمياتنا عبر السنين؟ ولدينا أمثلـــــة شاهدة لشعوب قريبة: أين هم فراعنة الامس؟ وأين الفينيقيون؟ واين هم ميديون الأمس؟ هؤلاء كان لهـــم حضوراً مميزاً في التاريخ وقد أصبحوا الآن أقوام بتسميات جديدة أفرزها الواقع الحالي.

لقد سمعنا من أبنائنا وأجدادنا وجداتنا أننا شعب قديم، ومن ثم، ولما بلغنا سن الرشـــد، قرأنا في كتب التاريخ ذلك فبانت لنا معالمه الحضارية فامتلكنا شعوراً بالاعتزاز بأجدادنا العظام الذين ساهموا في صنع الحضارة البشرية، ووضعوا لبنة متينة في أساسها، فدفعـــوا عجلتـــها إلى الأمام، وهذا يجعلنا نستزيد في البحث عن أصولنا الحضارية الممتدة من الماضي إلى الحاضر.

ويذهب أحد الباحثين إلى أن هناك حقيقة ربما لا يعرفها الجميع هي أن من سمـــــاهم المؤرخـــون بالاكاديين والبابليين والآشوريين والكلدانيين خطأ، ما هم – جميعاً – سوى جزء من الشعب الآرامـــــي العظيم الذي حدد المؤرخون والمستشرقون أرضه وموطنه ببلاد فارس شرقاً وإلى البحر المتوســـط غربـــاً، ومن أرمينيا وآسيا الصغرى شمالاً حتى الجزيرة العربية جنوباً، كما عرف هذا الموطن بآرام وهو قسمان:

سوريا الخارجة والجزيرة وجزيرة النهرين وما بين النهرين، ويحدها شرقاً بلاد فارس وغرباً نهر الفرات وآسيا الصغرى، سوريا وبادية الشام، وشمالاً أرمينيا وجنوباً بلاد العرب.

آرام الشام وهي التي تسمى بسوريا، وسوريا الداخلة والشام وبر الشام، وتحـــد شمـــالاً بآسيا الصغرى وشرقاً بالفرات والبادية وجنوباً بجزء من بلاد العرب، وغرباً بالبحر المتوســـط، ويدخل فيها اليوم فينيقية وفلسطين[1].

---

[1] – ابن الآرامين: لا لتزييف الحقائق التاريخية صحيفة الديار بيروت ٩٩/٩/١٨ ص١٠.

ويعلل هذا الباحث ذلك في أن التسمية السياسية (الآشورية) سقطت مع سقوط الدولة الآشورية عام ٦١٢ق.م كما سقطت من قبلها ومن بعدها التسميات السياسية (الاكادية والبابلية والكلدانية) و لم يبق في حالة الاستمرار، سوى التسمية القومية (الجنسية) الآرامية، التي حل محلها اسم جديد هو (السريانية) ليشمل الجميع في العهد المسيحي من ططيانس وبرديصان ومار أفرام ومار يعقوب.. الخ المعلمون والآباء والقديسون ومن جاء وسيجيء بعدهم، هم آراميون جنساً ولغةً، و لم يسم الآراميون سرياناً إلا بعد تنصرهم، وهوذا مار يعقوب السروجي يؤكد لنا آرامية أولئك الآباء والملافنة العظام من خلال تقريظه للقديس مار أفرام بالسريانية قائلاً: هذا الذي أضحى أكليلاً للأمة الآرامية جمعاء، ونالت به محاسن روحية[١].

إن دراسة التاريخ السوري تلقي الضوء على مجريات متغيرة ومتحركة في تاريخ هذه البلاد، حوادث لعب فيها التاريخ وصراعاته أدواراً مختلفة، كما لعبت الجغرافيا دوراً مهماً في بناء مجتمعات هذه المنطقة وأبقت لها هويتها التي هي ما يشخص الذات ويميزها، كما تعني الثقافة شؤون الفكر والأدب والفن، أو قد تعني الحضارة.

الآرامية

اصطلح المؤرخون في هذا العصر أن يسموا الشعوب التي تتفاهم بالعربية والعبرانية والسريانية والحبشية – والتي كانت تتفاهم بالفينيقية والآشورية والآرامية (شعوبا سامية) نسبة إلى سام بن نوح، لأن هذه الأمم جاء في التوراة أنها من نسله، وسموا لغاتهم اللغات السامية. ولا خلاف في أن هذه اللغات متشابهة في ألفاظها وتراكيبها، وأنها من أصل واحد ويسمونه (اللغة السامية)، كما تتشابه فروع اللغة اللاتينية أو فروع السنسكريتية، فيقال مثلاً إن اللغتين الإيطالية والإسبانية أختان أمهما اللغة اللاتينية[٢].

وقد كانت جزيرة العرب هي مهد الجنس السامي على ما يرجح، وقد أنشأت الشعوب التي نزحت فيما بعد إلى الهلال الخصيب ــ هذه الشعوب ــ التي أصبحت مع تعاقب الأجيال أمم البابليين والآشوريين والفينيقيين والعبرانيين. وفي تربة هذه الجزيرة الرملية نشأت العناصر

---

١ – ابن الآراميين: لا لتزييف الحقائق التاريخية صحيفة الديار بيروت ٩٩/٩/١٨ ص١٠ مصدر سابق.
٢ جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام منشورات مكتبة الحياة – بيروت ص٤٣

الأصلية للديانة اليهودية وبالتالي المسيحية وظهرت هذه السمات والسجايا التي أصبحت بحكم التطور فيما بعد من مميزات الخلق السامي.

على أن د. حتي يرى أن استقرار الآراميين في الشام كان حوالي ١٥٠٠ ق.م، وفي ذات الوقت استقر العبرانيون في فلسطين، ولقد ظل الناس في العصور الوسطى والعصر الحديث إلى القرن التاسع لا يدركون أن هذه الشعوب تربطها أواصر قربى شديدة، حتى إذا حلت رموز الخط الإسفيني في منتصف القرن التاسع ودرست اللغات الآشورية — البابلية والعبرانية والآرامية والحبشية دراسة مقارنة، تبين أن بين هذه اللغات أوجه شبه ظاهرة وأن الصلة بينها جوهرية حقيقية[1].

ويمكن الاعتقاد أن الآرامية أتت من لهجة سامية غربية كانت مستعملة في شمال غربي بلاد الرافدين في النصف الأول للألف الثاني قبل الميلاد. و لم يكتسبوا اسمهم (الآراميين) حتى أيام تغلات فلاسر الأول (نحو ١١٠٠ق.م) حين أقاموا في منطقة الفرات الأوسط حتى سوريا في الغرب، سهل البقاع (جوف سوريا) الواقع بين جبلي لبنان الشرقي والغربي. إن أسلاف أبناء يعقوب هم آراميون من جهة الأم، وهناك عبارة تسمي أبا الأمة العبرانية آرامياً. وسفر التكوين الذي يدون بدء التاريخ العبراني مملوء بالتعابير ذات الصبغة الآرامية والمفردات الآرامية. وكان أسلاف الشعب العبراني يتكلمون الآرامية كما يظن قبل استقرارهم في فلسطين واقتباسهم اللهجة الكنعانية المحلية.

وفي تاريخ المنطقة القديم نرى أن الموجات السامية العربية أعقبت هجرة الكنعانيين والعموريين وتدفقت إلى أنحاء الهلال الخصيب موجة الجماعات التي تسمى بالآراميين نسبة إلى آرام بن سام بن نوح. والمرجح أن اشتقاق كلمة أرم الواردة في القرآن الكريم من أسمهم. وقد جاءت كلمة (أرم) في التوراة مضافة إلى عدة أماكن يراد بها مستوطن أو قبيلة أو أرض عالية مثل (أرام صوبة) و(أرام النهرين) و(أرام دمشق) و(فدان ارام) الخ.. وقد أطلق الآشوريون تسمية (آرام) على الجماعات التي وجدت في العراق، ومن ثم عمت كل القبائل التي تنتسب إلى أصل واحد.

ولغة الكتب اليهودية المقدسة، المسماة تقليدياً اللغة العبرية، هي عبارة عن لهجة من لغة (سامية) كانت منتشرة في الأزمنة التوراتية في أنحاء مختلفة من جنوب شبه الجزيرة العربية وغربها ومن الشام (بما فيها فلسطين). ونظراً لعدم وجود تعبير أفضل، فإن هذه اللغة تسمى في يومنا هذا (الكنعانية) نسبة إلى شعب توراتي كان يتكلمها. وإلى جانب الكنعانية كانت هناك لغة سامية أخرى منتشرة في الوقت ذاته في شبه الجزيرة العربية والشام، وهي الآرامية، التي سميت

[1] د. فيليب حتي: العرب ص٣٦

كذلك نسبة إلى الآراميين التوراتيين. وبغض النظر عمن كان الكنعانيون، ومن كان الآراميون، في الحقيقة، فإن اللغتين الكنعانية (العبرية) والآرامية كانتا تستخدمان بالتأكيد لدى مجتمعات مختلفة في غرب الجزيرة العربية، في مرحلة واحدة، وفي الوقت نفسه، كما كان الأمر عليه في الشام[1].

وتسمية اليهود هي التسمية التي أطلقت على بقايا جماعة يهوذا الذين سباهم نبوخذ نصر إلى بابل في القرن السادس قبل الميلاد. وقد سموا كذلك نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة. وقد اقتبس هؤلاء قبيل السبي لهجتهم العبرية من الآرامية وبها دونوا التوراة التي بين أيدينا في الأسر في بابل، أي بعد زمن موسى بثمانمائة عام. لذلك صارت تعرف هذه اللهجة (بآرامية التوراة) وقد استعملوا الحرف المسمى بالمربع وهو مقتبس من الخط العربي القديم.

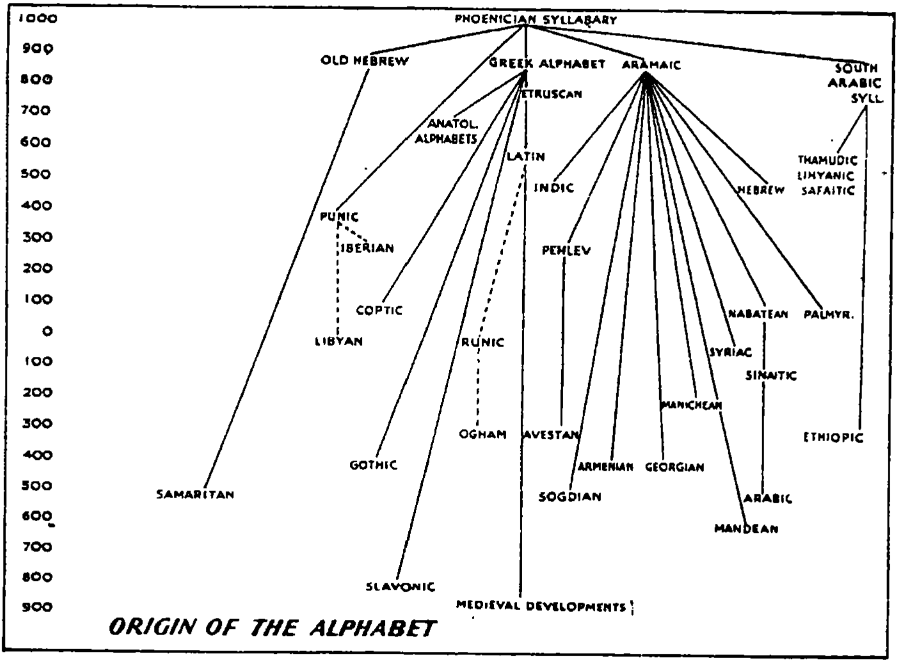

أصل الأبجدية ومنها يرى الباقي الأبجديات الأخرى وبينها العربية من الأبجدية الآرامية

واستقر الآراميون في هذه المنطقة كما توغلوا في شمال جزيرة العرب حيث نمت لغتهم وثقافتهم الخاصة، وقد اقتبسوا الكثير من العموريين والكنعانيين ومن الحضارات التي جاوروها

[1] د. كمال صليبي : التوراة جاءت من جزيرة العرب ترجمة عفيف الرزاز مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت ١٩٨٥ص٢٩

لاسيما حضارة وادي الرافدين والحيثيين، ولكنهم حافظوا على لغتهم وحلوا محل العموريـــين والحوريين والحيثيين في وادي العاصي.

وكان التجار الآراميون الذين نشروا لغتهم منذ أول عهدهم في مختلف البلدان وهي فرع من مجموعة اللغات السامية الشمالية الغربية. وقد وصلنا من عام ٧٣١ق.م في عـــهد تغـلات فلاسر الثالث أول رسم يمثل كاتباً يدون بالآرامية الغنائم المأخوذة من إحدى المدن المفتوحـــة، وهو يمسك بيده ليس قلماً ولوحاً من طين لأحل الكتابة المسمارية وإنما ملف بردي وريشـــة. ويبدو أنه كان يكتب بكتابة أبجدية. وفي نحو عام ٥٠٠ق.م أصبحت الآرامية التي كانت اللغـة التجارية لإحدى الجماعات السورية ليس فقط اللغة العامة للتجارة والحضارة والحكومة في بلاد الهلال الخصيب كلها بل اللغة التي يتعلمها سكان تلك البلاد في كلامهم، وكان فوزها علـــى شقيقتها اللغات السامية الأخرى بما فيها العبرية تماماً.

ومع انتشار اللغة الآرامية انتشرت الأبجدية الفينيقية التي كان الآراميون أول من اقتبسـها واستعملت في لغات أخرى في القارة الآسيوية. وحصل العبرانيون على أبجديتهم من الآراميـــين بين القرنين السادس والرابع وكانوا قبلاً يستعملون الأبجدية الفينيقية القديمة مدة مـــن الزمـــن. والحروف المربعة التي تطبع بها اليوم كتب التوراة العبرانية نشأت من الكتابة الآرامية. وأخـــذ عرب الشمال أبجديتهم التي كتب بها القرآن الكريم من الآرامية التي استعملها الأنباط وتطـــور عنه الخط العربي الحديث. كذلك حصل الأرمن والفرس والهنود على أبجديتهم مـــن مصـــادر آرامية، وحروف السنسكريتية من أصل آرامي[١].

ولنا مثال من اللغة الفارسية الحالية التي تشكلت في منتصف القرن الثامن الميـلادي، أي بعد دخول الإسلام بلاد فارس. وقد حلت هذه اللغة محل اللغة الفهلوية الـــتي كـــانت لغـة الإمبراطورية الفارسية في عهد الساسانيين. وكانت قد سبقت هذه وتلك لغة ثالثة، هي اللغـــة الإيرانية القديمة التي سادت في عهد الاخمينيين، منذ القرن السادس قبل الميلاد. وتجدر الإشارة أن هذه اللغات الثلاث لم تعرف كتابة خاصة بها، فكتبوا الإيرانية القديمة بالخط المسماري الـــذي أخذوه عن بلاد الرافدين، وكتبوا الفهلوية بالخط الآرامي. كما كتبوا ومازالوا يكتبون الفارسية الحديثة بالخط العربي. كذلك لم يعرف الفرس الكتابة الأبجدية إلا في العهد الإسلامي، عندمـــا

http://www.al-maktabeh.com

١ – د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول ص١٨٣، مرجع سابق.

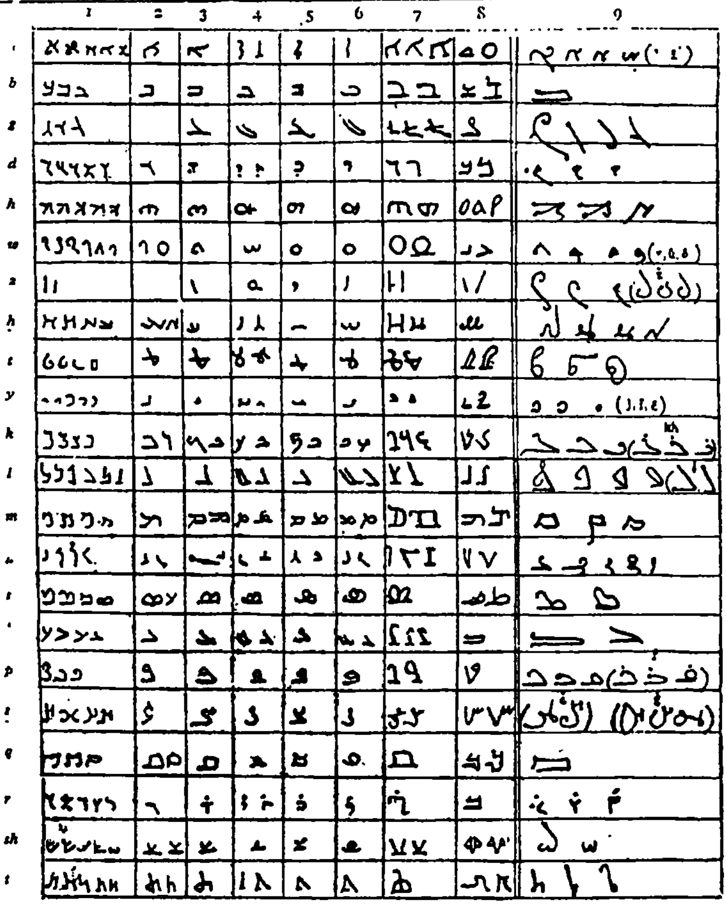

الكتابة الآرامية وتفرعاتها: ١- التدمرية (٢-٧) السريانية ٢- السريانية القديمة ٣- الاسطرنجيلية ٤- السريانية الغربية أو الرها ٥- السريانية الشرقية أو النسطورية ٦- اليعقوبية ٧- الفلسطينية المسيحية أو السريانية الفلسطينية ٨- المنداعية ٩- المانوية أو المانخية نقلاً عن كتاب (الأبجدية) تأليف د. دايرنجر

تحولوا إلى الكتابة العربية. أما الخط الآرامي الذي كتبوا به اللغة الفهلوية، فإنهم أخذوا الرسم دون قيمته الصوتية. وهكذا كانوا يكتبون بالآرامية م ل ك (ملك) لكنهم يقرؤونها: شاه. وقد ترك هذا الواقع الكتابي أثره على اللغة الفارسية، فجردها من كثير من سماتها الأصلية، وهو ما حصل حديثاً للغة التركية بعد أن اتخذت الأبجدية اللاتينية وسيلة لكتابتها[١].

أما الحضارة التدمرية فهي حضارة غريبة.. أنها مزيج من عناصر سورية ويونانية وفارسية. ولاشك أن السكان الأصليين كانوا قبائل عربية وقد تبنوا في كلامهم وكتاباتهم اللغة

١ – مجلة المستقبل العربي–بيروت العدد ١٠٦، ١٩٨٧/١٢ ص٧٢، د. احمد الحمو: حول واقعنا اللغوي في الماضي والحاضر.

الآرامية السائدة. وبقيت أكثرية السكان عربية رغم امتزاجها بالآراميين. ولا تعود الكتابات الأثرية إلى اقدم من ٩ق.م حيث كانت المدينة في طريقها لأن تصبح مركزاً تجارياً مشهوراً. والكتابة التدمرية الدارجة والتي كانت بالأصل كتابة سكان سوريا السلوقية الذين يكتبون بالآرامية في القرن الأول ق.م و لم تنشأ عنها أية اختلافات جذرية[1]. كما كانت اللهجة التي يتكلم بها التدمريون تتصل باللغة الغربية- السريانية وليس باللغة الآرامية الشرقية-النسطورية.

وحتى القرن الثالث الميلادي كانت تدمر تستعمل اللغة الآرامية إلى جانب اللغة اليونانية كلغة رسمية، وكذلك استعملت دورا-اوروبس الآرامية واليونانية في كتاباتها الأثرية.

وحين حلت الآرامية السورية في بلاد الشمال محل الكتابة الاكادية، أصبحت الآرامية هي لغة التعاملات التجارية في هذه المنطقة، قبل أن تصبح لغة الخطابات الدبلوماسية كذلك. وعندما كوّن الفرس إمبراطوريتهم بعد ذلك بقرنين-التي امتدت من الهند في الشرق إلى وادي النيل في الغرب- أصبحت الآرامية هي اللغة الرسمية للإمبراطورية الفرسية بأكملها، إلى أن سقطت الدولة الفارسية أمام الإغريق. وهنا بدأت الكتابات الآرامية تتخذ أشكالاً محلية في البلدان التي استعملتها، فظهرت أفرع عديدة عن الآرامية منذ بداية القرن الأول السابق على المسيحية، مثل الكتابات العبرية الجديدة والنبطية والتدمرية والسريانية. وبالرغم من سقوط دولة الأنباط أمام القوات الرومانية في بداية القرن الميلادي الثاني، إلا أن الكتابة النبطية استمرت بعد ذلك حوالي ١٥٠ عاماً خاصة في شبه جزيرة سيناء. وقد وجد عدد كبير من هذه الكتابات خاصة في (وادي المكتب) بالقرب من سرابيط الخام، وكذلك في (وادي حجاج) بالقرب من سانت كاترين. وكان النبطيون يتحدثون العربية واستخدموا الأبجدية الآرامية في كتابة لغتهم منذ القرن الثالث قبل الميلاد.

وتم العثور على العديد من النصوص النبطية في شمال الجزيرة وفي فلسطين وسيناء. وقد حاول الباحثون تفسير ظاهرة انتشار الكتابة النبطية المنقوشة على الصخور في مناطق عديدة من سيناء بالرغم من سقوط دولتهم، واقترح البعض أن الرومان كانوا يستخدمون الأنباط للقيام بأعمال المناجم في سيناء، لتعليل وجود الكتابات النبطية هناك، كما تبين كذلك وجود عدد كبير من بقايا الفخار النبطي في نفس هذه المواقع، مما يدل على وجود أقوام نبطية مستقرة هناك، كما يبدو أنه كان لهم مواقع مقدسة عند جبل موسى ودير سانت كاترين، مما حدا بالبعض إلى القول بأنهم كانوا في تلك الفترة مواطنين مقيمين في المنطقة وليسوا زوارا لها[2].

١ – د. فيليب حتي: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، الجزء الأول ص٢ و٤٤٣، مرجع سابق.
٢ – صحيفة الشرق الاوسط-لندن العدد ٦٥٣٢ ١٦/١٠/٩٦، ص١٦، احمد عثمان.

واللغة التي نقرأها على آثار بطرا (بترا) وغيرها من أطلال الأنباط آرامية، وأما لغة الكلام فكانت عربية، والاثنتان مرتبطتان بأمهما القديمة لغة بدو الآراميين، أو اللغة البابلية القديمة بعلامة تشتركان فيها دون سائر اللغات السامية، أعني حركات الإعراب في أواخر الكلم في بعض الاحوال. واللغة الآرامية التي كتب بها الأنباط غير الآرامية المعروفة اليوم، وفي تلك أثر من لغة العرب التي كان يتكلمها ذلك الشعب.

وما يقال عن النبطيين أهل بطرا والتدمريين من حيث أصلهم يقال عن المشابهة الشديدة بين البلدين وبين سكانهما من أكثر الوجوه.

ولو لم يخلف النبطيون والتدمريون آثاراً منقوشة بالحرف الآرامي الذي اقتبسوه من أهل الحضارة لضاعت أخبارهم كما ضاعت أخبار مئات من القبائل التي كانت تقيم في أعالي الحجاز في عهد التمدن القديم. على أن بعضها ذكره اليونان في وصف جغرافية بلاد العرب، والبعض الآخر جاء ذكره عرضاً في أثناء الكلام عن الدول الأخرى[1].

إذن الآرامية هي فرع رئيسي يرجع إلى الهجرة السامية الثالثة ذكرت في مصادر التوراة وفي الكتابات المسمارية.

إن اللغة الآرامية التي انتشرت شمال غربي ما بين النهرين ليس لنا أن نمر عليها مرور الكرام، وهي التي أصبحت لغة أقطار الشام، متغلغلة في بلاد فارس، منتشرة بين الشعوب المجاورة لها، ممتدة إلى وادي النيل وآسيا الصغرى وشمال جزيرة العرب حتى حدود الحجاز، وبقيت دهوراً طوالاً اللغة الرسمية والتجارية للأمم الحية في القرون الأولى قبل الميلاد في بابل وآشور وفارس ومصر وفلسطين. كما كانت الآرامية–السريانية لغة المسيح والحواريين.

أما كتب العهد القديم التي جاءت بالآرامية فهي عزرا ودانيال وأرميا وبعض من سفر التكوين. وقد يكون سفر دانيال بكامله كتب باللغة السريانية ثم نقلت بدايته ونهايته إلى العبرانية لتيسير تنسيقه في مجموعة الكتب المقدسة .

وان الكتابات الدينية لمختلف الكنائس الشرقية دونت بلهجات مشتقة من الآرامية (أي السريانية) وبأقلام مأخوذة من الأبجدية الآرامية. وقد حلت اللغة الآرامية محل الكنعانية وظلت اللغة السائدة في البلاد إلى الفتح العربي في القرن السابع بعد الميلاد بعد أن تحول اسمها إلى اللغة السريانية.

[1] – د. احمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ، العربي للطباعة والنشر–دمشق، الطبعة السادسة ص١٥٣، مرجع سابق.

وتفرع عن القلم الآرامي أقلام عديدة متشابهة، المعروف منها الآن القلـــم الســـامري والتدمري والنبطي ومن الأخير نشا القلم الحميري العربي الذي منه تولد الخط الكوفي، وهو مــا يؤكده د. احمد سوسة من أن الآراميين عرب حيث الملك الآشـــوري اســـرحدون (٦٦٨ – ٦٢٥ق.م) يشير في كتاباته إلى أن الملك حزائيل ملك العربيـــي (العرب) جـــاء خاضعـــا إلى نينوى وهو يحمل معه جزية كبيرة. والمعلوم أن حزائيل اسم آرامي وهو بالطبع غـــير الملـــك حزائيل الآرامي الشهير ملك دمشق الذي استولى على معظم أملاك إسرائيل وتمكن من صـــد هجوم الملك شلمنصر في سنتي ٨٤٢ – ٨٣٨ ق.م[1].

يبقى السؤال قائماً فيما إذا كان الآراميون عرباً أو هم ساميون، وهو تعبير غير واضـــح المعالم فيما إذا كان يتناول شعباً أم لغةً. وهناك من يقول أن سكان سوريا ومصر والعراق قبـــل الفتح العربي لم يكونوا يعدون أنفسهم عرباً، و لم يكن عرب الجزيرة يعدونهم عرباً. ويوجد مــن يقول أن موطن الساميين الأساسي هو الجزيرة العربية. ولكن القول لا يقوم على دليل ثـــابت. وهب أن الأمر كذلك وانهم غادروها منذ آلاف السنين قبل أن تنشأ الحضـــــارات وتتكـــون القوميات والثقافات، فالشعوب الأوربية أتت من أواسط آسية منذ عهد أقرب إلينا وما تعـــد نفسها تترية. كذلك لا نرى من طائل من القول بان الفينيقيين أو الآراميـــين أو العـــبرانيين أو المصريين الأولين هم عرب. فليس من شيء بين هذه الشعوب يدل على وحدة الأصل، ولا بينهم وبـــين عرب الجزيرة (فكل ما هنالك أن بين سكان سورية والعراق الساميين والعرب تجانسا. والتاريخ يؤكـــد أن بعض القبائل العربية، في العصر التاريخي، دخلت الشام وجنوب العراق وسيناء قبل الفتح الإســـلامي واندمجت شيئاً فشيئاً فيها كبني تنوخ وغسان وجذام، وكانوا تحت حكم الروم)[2].

ويؤكد العلامة أ. كروهمان في بحثه عن أصل العرب علاقة الآراميين مع قبائل الخبـــيرو والعبيرو فيقول(ومن المؤكد أن العنصر العربي البدوي في شبه جزيرة العـــرب ، وهـــو علـــى الأرجح مصطلح مرادف لتسمية "آرام" و"عبيرو" و"خبيرو" وجد في الأصل في المنطقة التي تمتد بين سوريا وبلاد ما بين النهرين والتي تعد أقدم مركز للعرب الساميين)[3].

لقد ذهب د. حتي إلى القول أن أهم ما يعتمد عليه من المصادر لدراسة تاريخ الجزيـــرة العربية القديم-عدا أخبار العلماء العصريين من أرباب الاكتشاف والارتياد بدءاً من كارســـتن

[1] د. احمد سوسه: العرب واليهود في التاريخ العربي للطباعة والنشر – دمشق الطبعة السادسة ص١٥٣ مرجع سابق

[2] – الأب اغناطيوس ديك: النصارى العرب والوطن العربي، مجلة المســـرة-حريصـــا، الســـنة ٥٣/١٩٦٧، حزيـــران ص٤١٣، مرجع سابق.

[3] *grohmann , A: (the Arabs) Encyclopedia of islam, N. y 1960 vol 1 p.255.*

http://www.al-maktabeh.com

ينبوهر الذي زار هذه البلاد عام ١٧٦١- هو التآليف العربية التي وضعت بعد الإسلام، وأكثرها على غزارة مادها متأخرة لا يوثق بها تمام الثقة، ثم الأخبار المبثوثة في الأدب الإغريقي واللاتيني والإشارات اليسيرة التي وردت في سياق المحفوظ من مدونات الفراعنة وملوك آشور وبابل وفي الرموز الهيروغليفية والخطوط الاسفينية، وكذلك الخطوط الحميرية التي حلت رموزها منذ عهد قريب. وأي ضياع للمدونات التاريخية التي تخص بعض هذه الحضارات المتتاخمة يؤثر على بعضها الآخر، أي أن غموض وعدم وضوح الحضارات القبلية القديمة لشبه الجزيرة العربية يؤثر في حضارات سوريا.

وما يمكن قوله الآن هو أن اللغات الثلاث: العربية والعبرية والسريانية هي البقايا التي انتهت إليها العائلة اللغوية السامية[1].

لهذا يجب الاحتراس في إطلاق أي رأي دون تمحيص علمي، على هذه الحضارات، فالأخطاء والمغالطات أو الغموض الذي قد ينتاب أي حضارة مفردة منها يؤثر في مجموع حضارات الشرق الأدنى القديم.

إن الكثير من الكتابات التاريخية تغمض من حق الحضارة الآرامية معللة ذلك في عدم وجود شواهد تاريخية أو ثقافة قائمة تدلنا عليها، فيما أن معظم الآثار الباقية في سوريا تعود إلى الآراميين ولو بتسميات جديدة، ذلك أن الآراميين كشعب عظيم وكبير بسبب انتشار قبائلهم وامتداد وجودهم القومي الكبير وإنشاء ممالكهم ودولهم العديدة في سائر بلاد الشام هو ما أبقى آثارهم تدل على عظمتهم.

السريانية

اللغة السريانية لغة شع نورها في أكثر أرجاء العالم، وساهمت مساهمة فعالة وجادة في بناء الحضارة الإنسانية، قديماً وحديثاً، والتي هي شقيقة ملازمة للغة العربية.

واللغة السريانية، كما يقول أحد المصادر[2]، هي إحدى اللغات السامية القديمة، وتسمى بالآرامية أيضاً. وقد اخطأ من فصل بين اللفظتين، أو جعل السريانية فرعا من الآرامية، أو لهجة

[1] - صحيفة الاهرام – القاهرة – ١٩٩٧/٩/٧، شوقي عبد الحكيم.
[2] - المطران اسحق ساكا: كنيستي السريانية – مطابع ألف باء–دمشق ١٩٨٥ ص٤١، مرجع سابق.

من لهجاتها. وقد أحرزت من الانتشار الهائل ما لم تفز به أية لغة في العالم منذ فجر التاريخ وحتى اليوم إلا اللغة الإنكليزية في هذا العهد. وقد كانت لغة أهالي سوريا وما بين النهرين، وامتدت إلى الجزيرة العربية ومصر وأضحت يوماً اللغة الرسمية في دولتي آثور وبابل بعد اضمحلال لغتهما الآكادية القديمة وذلك في نهاية القرن السابع قبل الميلاد. كما أضحت لغة الدولة الفارسية منذ عهد ارطحشثت، ولغة اليهود الدارجة في فلسطين بعد الجلاء البابلي، أي منذ القرن السادس قبل الميلاد ولذلك دعيت أيضاً بالكلدانية والعبرية. وامتدت أيضاً إلى إيران وإلى المناطق المجاورة لها إلى أن كان رحال الدين البوذيين بواسطة الرهبان النساطرة. وكانت في هذا كله لغة الأدب والعلم والسياسة والتجارة.

وعلينا أن لا ننسى أن السريانية قبل ذيوعها كانت قد تمثلت خواص اللغات السامية التي سبقتها في سوريا. ولهذا حين شاعت اليونانية في ديارنا، بصورة أخص، أثر ظفر الاسكندر المقدوني بالبلاد سنة ٣٣٣ قبل الميلاد. المقدونيون الأوائل الذين أقاموا في البلاد السورية كان أكثرهم، في بادئ الأمر (من الجنود العاجزين والمعتوهين، ثم ازداد عددهم من تجار وصناع وموظفين)[١].

على أنه لم تمر سنوات قليلة من عمر الدولة السلوقية حتى أخذ الغزاء ببناء مدن حديدة نظير أنطاكيا وسلفاكيا ولاودوكيا وأفانيا وأبيفانيا (حماة)، وغيروا أسماء مدن تحمل أسماء سامية، حيث صارت حلب Beroe وتدمر Palmyre وعكا Ptolemais وبعلبك Helipolis والبترون Botrys. وقليلاً قليلاً شقت اللغة اليونانية بثبات طريقها في صفوف الناس، لا سيما في المدن الكبرى من حيث إنها أضحت لغة الدوائر الرسمية والثقافة والتجارة. حتى أن الآلهة اليونانية أخذت تحل محل الآلهة السامية[٢]. لغوياً، وباعتبار المرونة التراثية في تعامل سكان سوريا مع الغزاة، التقط الكثيرون اللغة اليونانية، فصارت اليونانية الشائعة على خلفيتهم السامية تعرف بسمية (Koini) الغزاة، من ناحيتهم، اكتفوا بتباه، بلغتهم الخاصة من دون أن يخطر ببالهم أن يتعاطوا لغة السكان المحليين من حولهم. هؤلاء أطلق عليهم الغزاة صفة (البربر) أو (الخرس). ويدعي ق. الباشا أن اليونان اهتموا بتوحيد الأمم التي استولوا عليها ونشروا الآداب واللغة والشرائع اليونانية فيها (حتى صارت سوريا بذلك يونانية وأهلها يونانيين لا يختلفون عمن كان في بلاد اليونان بشيء).

---

(١) فيليب حتي: سورية والسوريون من نافذة التاريخ، المطبعة التجارية السورية الأمريكية- نيويورك ١٩٢٦ ص٢٠،٢٢.
(٢) الأرشمندريت توما البيطار: اللغة السريانية في تراث الكنيسة الأرثوذكسية الإنطاكية، القسم الأول، مجلة الحكمة- القدس، العدد الأول، السنة الثانية عشرة ١٩٩٧ ص٣٩.

ثم يزيد بقوله أنه لم يكن اليونان في بلادهم أكثر مما كان منهم في سوريا، وأن الأمة اليونانية (جعلت مركزها بعد الفتح في سوريا)[1]. هذا الرأي لا يجاري فيه الخوري الباشا أكثر الدارسين الذين يعتبرون أن العامة احتفظت بلغتها الآرامية، و لم يطمس الوجود الهليني طابعها السامي، وإذا ما أخذنا برأي جواد بولس (إن الهلال الخصيب منذ الألف الرابع قبل الميلاد، ظهر بأنه سام لغة وثقافة وغير قابل للانصهار في بيئة غير سامية)[2].

وكان لهذا الانتشار الواسع للسريانية أن ولدت لهجات عدة يمكن التمييز بينهما تبعاً لعامل الزمان والمكان والدين والحضارة. يقول ابن العمري في هذا الصدد: (إن اللغة السريانية تفرعت إلى فروع كثيرة أكثر من جميع اللغات الأخرى وذلك لانتشارها في بلاد شتى بعيدة عن بعضها، فصار بين اللهجة والأخرى بون شاسع لا يستطيع معه أبناء اللهجة الواحدة أن يفهموا المتكلمين ببقية اللهجات.. فإن سكان سوريا مثلاً يتكلمون لهجة غريبة عن لهجة فلسطين وكذلك المشارقة الذين ابتعدوا عن الأصل أكثر من هؤلاء. وأحصى ابن بهلول في قاموسه المشهور ست عشرة لهجة. غير أن هذه الفروق التي يرويها ليست إلا فروقاً نشأت بين اللهجات المحكية فقط دون الكتابة والأدب. وإذا استثنينا بعض التغيير في اللغات التي تفرعت إليها فإن السريانية لم يطرأ عليها تبديل منذ استقرارها وما ورد منها في التوراة وما بقي من شعر الفيلسوف (وفا) يطابق كل المطابقة لحالتها اليوم ولا تزال على نضارتها[3]. وإنما نسيت منها ألفاظ بعتق الزمان فأمست عند بعضهم تافهة كما ذكر أنطون التكريتي[4]، وأضاع أهلها بإهمالهم ألفاظاً حفظت في العربية كما أثبت يعقوب البركلي[5].

ومع أن البعض دأب على تقسيم اللغة أو اللهجات الآرامية إلى فئتين كبيرتين: شرقية وغربية، رغم أن بعض المستشرقين لم يرتاحوا لهذا التقسيم و لم يستصوبوه بل علقوا عليه، قال شابو: (إن هذا التقسيم يستند إلى اعتبارات لغوية دقيقة أكثر من استناده إلى اللفظتين شرقيةً وغربيةً، وفي الحقيقة أن هاتين اللفظتين ليس لهما من علاقة إلا من حيث الزمان والمكان[6]. وفي

---

(١) الخوري قسطنطين الباشا: بحث انتقادي في أصل الروم الملكيين، بيروت ١٩٠٠ ص٩و١٣، مرجع سابق.

(٢) جواد بولس: التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام، دار عواد للطباعة والنشر، بيروت ص١٢٢.

(٣) برصوم، البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور مطبعة الأديب- دمشق ١٩٨٧ الطبعة الخامسة ص١٦.

(٤) برصوم، البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور نقلاً عن كتاب (معرفة الفصاحة) لأنطون التكريتي، المقالة الأولى الفصل السادس والعشرون.

(٥) برصوم، البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور نقلاً عن كتاب (المسائل والأجوبة) ليعقوب البركلي، المقالة الرابعة، المسألة الثانية عشرة.

(٦) ملكي، د. كابي: اللغة الآرامية السريانية وأهميتها، مجلة آرام- ستوكهولم العددان الثامن والتاسع شتاء ١٩٩٤ صيف ١٩٩٥ مرجع سابق.

هذا الصدد قال أفرام الأول برصوم: في أوائل القرن السادس ب. م انقسمت السريانية من حيث لفظها وخطها إلى قسمين يعرفان بالتقليديين الغربي والشرقي نسبة إلى مواطن الشعب الذي كان يزاولها، أي بلاد الشام الغربية وبلاد ما بين النهرين الشرقية والعراق وأذربيجان ويستثنى من هذا القسم الشرقي الشعب العراقي الأرثوذكسي.[1]

الفئة الغربية: وكانت تشمل فروعاً عدة هي: النبطية والتدمرية والآرامية اليهودية (تلمود أورشليم) والآرامية المسيحية (لهجة مسيحيي فلسطين) والسامرية.

الفئة الشرقية: وتشمل اللغة السريانية الرهاوية ولغة التلمود البابلي واللهجة المندعيــة[2]. ولما كانت مملكة الرها السريانية الآرامية المعاصرة للمسيح على أهمية سياسية وثقافية وكنســية بعدئذ، فقد سادت لهجتها الآرامية على سائر اللهجات الآرامية الأخرى التي اندثرت أو تكـاد. أما اللهجات الآرامية السريانية المتبقية اليوم فهي: لهجة معلولا (القريبة من لغة المسيح) وسريانية طور عبدين والسورت (سريانية النساطرة والكلدان).

ولكن المطران بولس بهنام يهاجم بشدة تقسيم اللهجات الآرامية شرقية وغربية قائلاً: إن هذه اللهجات كلها تحدرت بتمادي الزمان من لغة واحدة واختصت كل لهجة بكيانها الخــاص وأسلوبها الخاص، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لم تنقسم اللغة الآرامية إلى لهجتين اثنتين فقط في بادئ الأمر، وكل من اللهجتين تفرعتا إلى عدة فروع. فلا يستطيع إذا والحالة هذه إلى تقســيم هذه اللهجات الكثيرة إلى فئتين شرقية وغربية، فيكون هذا التقسيم خاطئاً من أصله، مع العلــم أن تسمية شرقية وغربية هي من مخلفات السريانية المسيحية، حدث في القرن السادس الميلادي. أما قبل المسيحية فكانت كل اللهجات المختلفة مع كثرتها قائمة بذاتها منحدرة من اللغــة الأم. وإن لهجات تدمر والبتراء ودمشق وبابل ونينوى والرها كلها آرامية ذات اصل واحد، ولا يمكن بأي وجه من الوجوه تقسيمها إلى فئتين شرقية وغربية.. ولو كان هناك فرع شرقي بالمعنى الذي يقصده المستشرقون، تكون بابل أم اللهجات الشرقية، وإذا كان كذلك كيف أن تكون لهجــة فلسطين اليهودية المنبثقة عنها غربية؟ ولهجة الرها وهي أم اللهجات الغربية، فكيــف يســوغ جعلها شرقية[3].

وعلى هذا يمكن القول إن اللغة الآرامية السريانية كانت منذ القرن الرابع قبل الميـلاد إلى ظهور الإسلام اللغة المحكية لدى جميع الشعوب الساكنين بين بلاد فــارس ومصــر واليــهود

(١) برصوم البطريرك مار أغناطيوس أفرام الأول: اللؤلؤ المنثور مرجع سابق ص١٦.
(٢) أبونا، الأب ألبير: أدب اللغة الآرامية مطبعة ستاركو - بيروت ص٨.
(٣) مجلة المشرق- الموصل السنة الثالثة ص٢٥٦ المطران بولص بهنام.

والساميين المتوطنين في مصر وآسيا الصغرى إلا ما ندر، وإن جميع الخطوط التي عثروا عليها في تدمر وحوران وبلاد النبطيين كتب بها. فلا غرو إذن إذا كان للسريان الآراميين أثر بيّن في نصرانية هذه الشعوب ولا سيما العرب منهم. فقد اجتذب مبشروهم وأساقفتهم ونساكهم في ما بين النهرين بقداسة سيرتهم، منهم قبيلة تغلب من ربيعة ومنازلها أرض الجزيرة التي سميت ديار ربيعة أي نهر الخابور ونصيبين إلى سنجار، وبنو عقيل والنمر وبنو شيبان (ثعلبة) وبنو بكر بن وائل في ديار بكر وغيرهم. ونحو سنة ٣٥٠ أنشأ مار هيلاريون رأس نساك فلسطين كنيسة في بلدة الخلصة في البرية جنوبي بحيرة لوط لأهلها العرب الذين آمنوا وحادثوه بالسريانية، كذلك حوران وعاصمتها بصرى التي شيدها التنوخيون نحو سنة ١٠٦ وهم فصيلة من عرب سبأ، وأن الملك عمرو بنى في بادية الشام كنائس عديدة. وفي النصف الثاني من القرن الرابع بشر عبد يشوع القناني الناسك السرياني أسقف دير محراق، جزيرة في اليمامة، وأنشأ ديراً باسم مار توما الرسول جنوبي قطر ضم بين جدرانه ٣٩٠ مئتي راهب.

وفي القرن الرابع أنشئت في سائر أنحاء البلاد العربية عدة كنائس وأسقفيات. ففي سنة ٣٠٧ أصبحت جدر ـــ أم قيس كرسياً أسقفياً، حضر أسقفها سابينوس مجمع نيقية سنة ٣٢٥ كما حضره كل من مارنيس أسقف تدمر، ونيقوميدس أسقف بصرى، وقوريون أسقف عمان (فيلادلفيا) وجناديوس أسقف حشبون (اسبونتون)، وسويرس أسقف سدوم، وبطرس أسقف إيلت (قلعة العقبة) في جزيرة سينا، وسويريوس أسقف رامة جلعاد أي القنوات. وقد آمن أهل بطرا (سلع) عاصمة النبطيين وبنيت كنائس فيها وفي ضواحيها وبواديها الشرقية. وحضر أسقفها استيريوس مجمعي سرديكا والإسكندرية عام ٣٤٣ و٣٦٢ وبطرس أسقف هيب (خربة السمرة) مجمعي سلوقية وإنطاكية سنة ٣٥٩ و٣٦٣. وبين سنتي ٣٧٣ -٣٧٨ رسم أساقفة أرثوذكسيون كانوا في المنفى موسى الناسك أسقفاً لعشيرة ماوية أميرة العرب في الحيرة بناء على طلبها. وفي كل ذلك استعملت الكنائس العربية الطقوس السريانية في عبادتها. وفي سنة ٩١٢ قاد مطران تكريت السرياني الأسقفية رجلاً عربياً ديّناً فكان يقدس لقومه بالعربية. وأتقن كثير من علماء العرب المسيحيين اللغة السريانية، ومنهم كان العلماء المتحرون في اللغتين السريانية والعربية من بني طي وتنوخ وعقيل الذين نقلوا الإنجيل المقدس من السريانية إلى العربية في حدود سنة ٦٤٣ بأمر البطريرك يوحنا أبي السذرات إجابة إلى رغبة عمر بن سعد أمير الجزيرة.[1]

[1] يعقوب الثالث، البطريرك مار أغناطيوس: تاريخ الكنيسة الإنطاكية الجزء الأول - بيروت ١٩٥٣ ص١٠٥.

وقد شاع الأدب الكنسي السرياني، على الأغلب، في القرنين السابع والعاشر الميلاديين، في الفترة التي تراجعت اليونانية ولم تكن العربية قد تقدمت إلى الحد الذي يسمح لها بان تكـون لغة من لغات الثقافة الكنسية. ولكن، بمرور الزمن واتساع رقعة انتشار العربية الذي قابله تقلص ولو بطيء أحياناً، في رقعة انتشار السريانية ومداها، استغني عن السريانية في الكتابة الكنسية.

وفي أهم دراسة حول هذا الموضوع يتناول الارشمنديت توما بيطار[1] هذه المسألة معـــدداً كيف كانت الصلوات الكنسية المسيحية بالسريانية والتحول الذي طرأ عليها حيث تم التحـول التدريجي من السريانية إلى العربية في الليتورجيا، وفق خطوط عريضة محددة تزامنت في حركتها أو تعاقبت. ولعله من الممكن إثباتها، بعامة، على الصورة التالية، مع الأخذ في الاعتبار الاختلاف في الأمكنة والظروف المحيطة بها والزيادة في أوقات لاحقة على بعض المخطوطات:

السريانية من دون العربية، وأحياناً السريانية واليونانية على عمودين متقابلين

السريانية مصحوبة بعناوين كرشونية

الكرشونية*

السريانية مصحوبة بعناوين بالعربية**

السريانية مع قراءات كتابية وسنكار بالعربية***

السريانية والعربية معا****

العربية*****

١ الارشمنديت توما بيطار: اللغة السريانية في تراث الكنيسة الأرثوذكسية الإنطاكية القسم الثاني بمجلة الحكمـــة القـــدس العدد ٢ و٣ /١٩٩٧ ص١٦

* – الكرشوني هو العربي بحرف سرياني، من اقدم النماذج المعروفة ملكيا المخطوط الفاتيكاني السرياني ١٩، وهو انجيـل مائدة من السنة ١٠٣٠م، وهو له عناوين كرشونية. أما المخطوط ٤٠٥٥ في المتحف البريطاني فهو نســـخة مـــن المزامير بالكرشوني مقسمة إلى كاتسمانات وفق الترتيب البيزنطي.

** – المخطوط الفاتيكاني السرياني ٧٩، وهو ميناون من القرن ١٢، فيه عناوين بالعربية

*** – المخطوط الفاتيكاني المشار إليه أعلاه يتضمن قراءات بالعربية. المخطوط ٢٨ من مخطوطات دير مار يوحنا دومـا هو كتاب للنبوات يعود إلى سنة ٦٧٥٠ لأدم (١٢٤٢م) كما أن أقدم سنكسار عربي معروف هو الســـينائي ٤١٧ من سنة ١٠٩٥م وهناك متفرقات سنكسارية من القرن الثامن ميلادي

**** – مخطوط برلين ٣١٧ يتضمن الصلوات التي تقال علنا في عمودين احدهما بالعربية والاخر بالســـريانية، فيمـــا الصلوات التي تقال سرا هي بالعربية. هذا المخطوط هو من القرن الخامس عشر ميلادي

***** – المخطوط الفاتيكاني العربي ٤٩، من القرن الثالث عشر ميلادي هو كتاب السواعي. وهناك اناجيل مـــائدة بالعربية من القرنين الثالث عشر والرابع عشر (مكتبة كنيسة القيامة).

http://www.al-maktabeh.com

إن الانتقال إلى العربية تم على خلفية سريانية لا عن اليونانية.

والسريانية كانت لغة عامة في الشام لم تدثر إلا بتملك الرومان على الشرق ونشرهم لغتهم فيه، فدثر مجد السريانية و لم يبق إلا القليل حتى جاء الإسلام وأدخل العربية. وكانت السريانية على عهد المسيح اللغة العامة في سورية وفلسطين ممزوجة بقليل من العبرية. ورأى دي فوكويه أن جميع الكتابات التي وفق العلماء إلى اكتشافها لا تتجاوز القرن الأول قبل الميلاد، واللغة التي كانت شعوب سورية تتكلم بها إلا ما ندر هي اللغة الآرامية وجميع الكتابات التي عثروا عليها في تدمر وحوران وأرض النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السريانية. واللغة التدمرية واللغة اليونانية هما الغالبتان على الكتابات المكتشفة في تدمر. وكانت اللغة اليونانية بمنزلة اللغة الرسمية في جميع الأقاليم الشرقية الخاضعة لدولة الرومان. وأما لسان أهل تدمر فهو لهجة آرامية على غاية الشبه بالسريانية. وقال بعضهم: أن التدمرية من اللغات الآرية الغربية تشبه النبطية وفي بعض الكتابات اسم ملكهم أذينة. ومن اللغات الكنعانية لغة موآب في شرقي فلسطين. وفي متحف باريز كتابة قديمة في هذه اللغة وضعها ملك اسمه مَيْشع يذكر فيها حروبه مع عمري ملك الأسباط (أسباط بني إسرائيل) ويقال لهم في كتب العرب ملوك الأسباط[1].

لقد عاشت الآداب السريانية من القرن الثالث الميلادي إلى القرن الرابع عشر، ولكن حياتها بعد الفتح الإسلامي كانت حياة ضعيفة لغزو اللغة العربية لها وغلبتها.

وبقي لنا من الأدب السرياني مجموعة في مختلف أنواع الكتابة، ولكن الذي بقي منها إنما هو المدرسة النصرانية لا الوثنية، فهناك كتب في الصلوات والأدعية الدينية والأقاصيص التاريخية، والتاريخ العام، والفلسفة، والعلوم-وكلها مصبوغ بالصبغة الدينية-لأن أكثر الكتاب كانوا قسيسين ورهباناً، وهناك قليل من الآثار الأدبية.

وخدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا أكثر مما ألّفوا، فلم يبتكروا كثيراً.

وحفظت اللغة السريانية بعض الكتب اليونانية التي فقد أصلها، وكانت ترجمتهم لكتب الفلسفة اليونانية هي الأساس الذي اعتمد عليه العرب والمسلمون أول أمرهم. وقد كانت الترجمة السريانية في عهدها الأول ترجمة حرفية تقريباً، ثم تحرر الكتاب المتأخرون من حرفية الترجمة.

وكان هؤلاء السريانيون ينقلون العلوم اليونانية بدقة وأمانة فيما لم يمس الدين، كالمنطق والطبيعة والطب والرياضة، أما الإلهيات ونحوها فكانت تعدل بما يتفق والمسيحية.

---

١ - كرد علي، محمد: خطط الشام، الجزء الأول ص٣٩، مكتبة النوري-دمشق ١٩٨٣ مرجع سابق.

واشتهر من السريان في العصر الأموي يعقوب الرهاوي (٦٤٠-٧٠٨ تقريبا) وقد ترجم كثيراً من كتاب الإلهيات اليونانية، وليعقوب هذا أثر كبير الدلالة، فقد أثِرَ عنه أنه أفتى رجـال الدين من السريان بأنه يحل لهم أن يعلموا أولاد المسلمين التعليم الراقي، وهذه الفتوى تدل مـن غير شك إلى إقبال بعض المسلمين في ذلك العصر على دراسة الفلسفة عليهم، وتردد النصـارى أولاً في تعليمهم[1].

ويقول ابن خلدون: كانت في العالم أمم الفرس الأولى والسريانيون والنبط والتبابعة وبنو إسرائيل والقبط وكانوا على أحوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياستهم وصنائعهم ولغاتهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع أبناء جنسهم وأحوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الأحوال وانقلبت بها العوائد إلى مـا يجانسها أو يشابهها وإلى ما يباينها أو يباعدها ثم جاء الإسلام بدولة مضر فانقلبت تلك الأحوال أجمع[2].

وفي الأربعين سنة الأخيرة حدث تجدد مهم في الدراسات السريانية من قبل الكثير مـن المستشرقين، وأصبحت الدراسات الأكاديمية الحاصلة في إطار السريانية مهمة ومتنوعـة وذات قيمة، ومنها التي تحاول تبسيط الموضوعات والمحتوى، إلا أن ما ينقص هو المحور، أي المكـان الذي يعاش فيه التراث السرياني.

لقد تراجع الدور الكبير الذي لعبته اللغة السريانية أمام اللغة العربية فأعطت الأولى للثانية الكثير الكثير مما لم نستفض بشرحه ودلالته من خلال الصفحات السابقة، ونحيل القـارئ إلى كتابنا (السريانية-العربية: الجذور والامتداد) فقد خصصنا معظم صفحاته في دراسة مقارنة للغة السريانية والعربية.

ومهما يكن فإن اللغة السريانية لازالت باقية، هنا وهناك، من خلال أسماء القرى والمدن السورية ومن خلال شيوعها في لهجة الناس العامية، وفي قرى قليلة (ذكرناها في سياق الكتاب) لازالت تتكلمها، وفي الكنائس التي تتبع الطقس السرياني[3].

---

١ - أمين، أحمد: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي-بيروت ١٩٧٥، ص١٣٠ و١ و١٣٢.

٢ - ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون، دار احياء التراث العربي-بيروت، الطبعة الثالثة ص٢٩.

٣ - كشفت بعثة تنقيب أثرية امريكية برئاسة البروفيسور مايكل فولر وذلك عام ١٩٩٧ عن وجود كنز أثري مـهم في تل تنينر بالقرب من مدينة الحسكة في شمال شرق سوريا عن مكتشفات اثرية عديدة من ابنيـة دينيـة وتجاريـة وترفيهية واواني فخارية واختام تعود إلى حقبات متتالية، تبدأ بـ ٢٥٠٠ق.م وتنتـهي بـالقرن الخـامس عشـر الميلادي. وكان سعادة البعثة الاثرية كبيرة جدا حين اكتشفوا أن اللغة السريانية كانت متداولة حتى في ذلك القـرن إلى جانب لغة البلاد العربية الرسمية، وفي ذلك دلالة على أن لغة البلاد الأصلية ظلت حية.
عن صحيفة هرا-اربيل، العراق، العدد ١١٧، أواخر ايلول ١٩٩٩ ص٧.

العربية

أول ما ظهر اسم العرب مكتوبا كان في المصادر الآشورية، خلال القرن التاسع قبل الميلاد، أطلقوه على بعض ممالك شمال الجزيرة العربية بينما كانت ممالك الجنوب تعرف بأسمائها من معينية وسبئية وحميرية، ولم يستخدم اسم العرب للدلالة على كل ممالك الجزيرة إلا منذ العصر الروماني.

وظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد أنواع جديدة للكتابة في الجزيرة العربية وفي بلاد الشمال، حيث ظهرت خمس لغات مكتوبة في جنوب الجزيرة العربية هي: المعينية والسبئية والحميرية والقتباتية والحضرمية.

وهناك خلاف بين اللغويين في تحديد أصل لغات الجنوب العربية، فبينما تتفق الأغلبية على أن الأبجدية السبئية هي أم اللغات الجنوبية كلها، ساد الاعتقاد أنه تفرعت عن أبجدية شمال الجزيرة. أما اللغات التي ظهرت في شمال الجزيرة فهي الديدانية والثمودية واللحيانية والصفانية وهذه اللغات، وان كتبت كلها بخط المسند، إلا أنها تختلف بعضها عن البعض الآخر اختلافاً كبيراً.

ويرى البعض أن اللغة العربية ربما كانت في الأصل لغة الإعراب من أهل البادية، في حين أن الكنعانية والآرامية كانتا من لغات النبط (أو البيط وهم سكان الحواضر) في مناطق التحضر المحيطة بالبادية، سواء في الشام والعراق أو في الجزيرة العربية[1].

أما عن انتشار اللغة العربية، فيرى محمد كرد علي أنه كان يتكلم بها قبل الفتح الإسلامي بزمان طويل لما ثبت من انتشار الغسانيين والتنوخيين والنبطيين والسبأيين وغيرهم في الشمال والجنوب. وكانت حوران والبلقاء والشراة من الأصقاع التي سبقت غيرها في هذه السبيل بدليل ما يشاهد من أسماء بعض قراها العربية مثل حرش، جاسم، تبنة، أذرعات، أذرع، محجة، السويداء، البتراء، نجران، القسطل، القناطر، الحفير...الخ. وذلك لأن هذه الأقاليم الثلاثة كانت أقرب إلى الاتصال بالعرب من الجنوب. وكان السابقون إلى نشر العربية في ديارنا الوثنيين من العرب أولاً ثم نصارى العرب، ويرجع إليهم الفضل في نشرها بادئ الأمر، فلم تلبث اللغة ستين

١ – الصليبي د. كمال: التوراة جاءت من جزيرة العرب، ترجمة عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية–بيروت ١٩٨٥ ص١٧.

أو سبعين سنة للفتح الإسلامي أن عم انتشارها في الشام ونقلت الدواوين زمن عبد الملك مـــن اليونانية إلى العربية ونازعت اللغة العربية السريانية فبذتها على صورة مدهشة، وان كان الضعف قد دب في هذه قبل الإسلام. وتغلبت العربية لغناها وسلاستها وضبط قواعدها وشدة احتيـــاج الناس إليها في مصالحهم. قال ابن خلدون: ولما هجر الدين اللغات الأعجمية وكـــان لســـان القائمين بالدولة الإسلامية عربياً هجرت كلها في جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان وعلـى دينه فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب. وهجـــر الأمـــم لغـــاتهم وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميـــع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة[١].

إن تأثير اللغة السريانية في العربية بعيد المدى وخاصة في اقتباس العربية مـــن الســـريانية الكثير من الكلمات الدالة على جوانب الحضارة.. (في الوقت الذي كان للغة الآرامية الغلبـــة والانتشار، أثرت تلك اللغة الآرامية في اللغة العربية تأثيراً عظيماً. وكلما أمعنـــا في الفحـــص والاستقصاء، اتضح لنا أن كثيراً من الكلمات العربية التي كانت تستعمل التعبير عن الأفكـــار والمواد التي تدل على درجة معينة من المدنية استعيرت من اللغة الآرامية ومن هذا نســـتنبط أن العرب شعروا بالمدنية التي كانت لدى جيرانهم الآراميين في الشمال وانهم تأثروا بها)[٢](واللغـــة العربية الفصحى التي نحن بصدد الكلام فيها نشأت من الآرامية في الشمال والسبئية في الجنوب، إلا أن آرامية الشمال تغلبت على السبئية في القرون القريبة من الإسلام)[٣].

ولا شك في أن اعتناق الإسلام قد سهل حركة الاستعراب وزاد في سرعة خطـــاه، وان التحول من لغة سامية إلى أخرى لم يواجه مشكلات لغوية مستعصية. ويعود للحيرة الفضـــل الكبير في شيوع الكتابة العربية حيث أنها لم تكن شائعة إلا بين النصارى ولا سيما بين العباديين في الحيرة، ونتيجة لذلك تعددت المعاهد التهذيبية فيها وتمهر سكانها في الكتابة العربية وحذقـــوا في صفة التدريس وخطهم الحيري اشهر من أن يذكر، وقد تعلمه الكثيرون.

وقد كان الانتصار اللغوي عند الفتوحات الإسلامية لسوريا وبعدها أبطأ من الانتصارات الأخرى. ففي هذا الميدان اتخذت الشعوب المغلوبة في سوريا وسواها أشد تدابـــير المقاومـــة. والظاهر أنهم كانوا أكثر استعداداً للتخلي عن عهودهم السياسية بل والدينية منهم للتنازل عـــن

---

١ – كرد علي، محمد: خطط الشام، الجزء الأول، مرجع سابق ص٤٢.

٢ – الابراشي، محمد عطية: لغة العرب وكيف ننهض بها طبع القاهرة ١٩٤٧ ص٤ و١١٥

٣ – الابراشي، محمد عطية: لغة العرب وكيف ننهض بها مرجع سابق ص١١٢

استقلالهم اللغوي. ولذلك استطاعت العربية الفصحى أن تحرز كسبها قبل العامية، فشرع الأدباء السوريون في التأليف باللغة العربية تحت رعاية الخليفة، قبل أن ينتحل الفلاحون السوريون اللسان الجديد(وأول ما وصل إلينا من المخطوطات العربية النصرانية المؤرخة، مخطوطة ألفها أبو قرة (ت٨٢٠) ونسخت سنة ٨٧٧ في دير القديس سابا قرب القدس)[١].

http://www.al-maktabeh.com

وزاد انحطاط العلم في القرن العاشر (الخامس عشر.م) حيث يعد العصر المملوكي – من الناحية الفكرية والعلمية ــ امتداداً للعصر العباسي ــ بحضارته العربية الإسلامية، ذلك أن سيطرة المماليك السياسية المباشرة على مقاليد الامور، لم تغير من الأمر شيئاً، لأنهم كانوا يحكمون من قبل من وراء ستار، وعلى هذا لم يحدث للعربية ما يعرقل من مسيرها أو يؤثر في حيويتها وأصالتها نتيجة الحكم المملوكي. وأمام ما اعتراها من وهن، دفع المختصين بالأدب إلى اعتبار العصر المملوكي عصر انحطاط للأدب العربي، فهو انحطاط نسبي، لأن العربية – مع ما كان لها من مركز مرموق في عهد المماليك – لم تكن لتضاهي – بطبيعة الحال – العصر العباسي الذي شهد فيه الأدب العربي عصره الذهبي.

وقد جعل شعور المماليك بعجمتهم ورغبتهم في تدارك هذا النقص يشجعون العربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، وذلك على الرغم من أن قسماً منهم كان يجد صعوبة في النطق بها، وفي الوقت نفسه فقد أجاد قسم منهم العربية كأحد أبنائها. ويمكن القول بأن اللغة العربية كانت منيعة الجانب في العصر المملوكي، ولكن بوادر ضعفها قد بدأت تظهر في أواخر ذلك العصر.

وفي عهد الأتراك بلغ انحطاط اللغة العربية والعلوم بها دركاً قصياً حيث حلت التركية محلها، فصارت لغة الدواوين والمحاكم، فقل عدد الذين يلمون بالعربية إلى حد كبير، واعترت لغتهم عجمة بادية ولحن واضح، نلحظ ذلك كله في كتابات ذلك العصر، فأصبح الشعر والنثر في حالة مخزية.

أما العربية الآن، فهي المسيطرة على حزيرة العرب والبلاد الشامية وشمال أفريقيا، وهي إحدى اللغات العالمية المعترف بها في المحافل الدولية.

[١] حتي، د. فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الثاني مرجع سابق ص١٧١

السريانية العربية

في الصفحات الماضية تناولنا البداية الآرامية للغة أهل سوريا ومن ثم السريانية إلى العربية، وننهي هذا الفصل المطول في بعض مافاتنا ذكره من خلال العرض السابق.

بسم الله الحي الأزلي
صلاة الساعة السادسة
هلموا نسجد ونركع للمسيح
ملكنا وإلهنا المزمور
الثالث والخمسون اللهم
باسمك خلصني وبقدرتك
اذكر لي شتمع الله صلاتي

صفحة من كتاب ((السواعية)) للروم الملكيين الكاثوليك الـــذي طبع في فانو (إيطاليا)، عام ١٥١٤، وهو أول كتاب عربي ظـــهر إلى الوجود بواسطة الطباعة

إن علاقة السريانية بالعربيـــة علاقة الأم مع ابنتها، فاللغة العربية هي امتداد للغة السريانية، تعاونت الاثنتان عبر العصور والدهور في جميع مجـالات الثقافة والآداب والعلوم وأخذتا مـــن بعضهما الكثير. فاللغة السريانية شـأن شقيقتها العربية لغة سلسة طيعة قـادرة على استيعاب جميع مفردات العصر في مختلف المجالات العلميـــة والأدبيـــة، خاصة أنها كانت في حقبة طويلة لغـــة سوريا ولبنان وبلاد ما بين النـــهرين وإليها ترجمت فلسفة وعلوم الإغريـــق والفرس ومنها انتقلت إلى اللغة العربية. وقد استمرت السريانية لغـــة فكـــر ووجدان زمناً طويـــلاً، ثم أخـــذت تتراجع وتنحسر أمام توســـع اللغـــة العربية دون منافسة أو مضايقة، بحكم حاجة الفرد للغة التي يتعامل بها مع بيئته ومجتمعه الذي يحيط به.

ويقول مطران السريان الأرثوذكس روهم: لا نستطيع أن نقول بأن العرب تواجـدوا في بلاد الشام مع الفتوحات الإسلامية وإنما نقول بان هذه الفتوحات كانت آخر الموجات السامية التي جاءت من الجزيرة العربية وكانت موجات أخرى قد سبقت مجيء الفتح الإسلامي لبـــلاد

الشام، وكانت هذه البلاد تتكلم اللغة السريانية قبل مجيء العربية التي أصبحت استمراراً للغة السريانية، وإلا ما معنى بقاء السريان محافظين على لغتهم أثناء الاحتلال اليوناني والفارسي ورغم استمرار تلك الاحتلالات عدة قرون، ومع ذلك لم يتحولوا لا لفرس أو يونان، وكذلك لم يتخلوا عن لغتهم السريانية عندما جاء العرب في القرن السابع الميلادي إلى بلاد الشام، حيث كان الاستعراب سريعاً جداً، لأن السريانية واللغة العربية هما لغات شقيقة من دوحة واحدة. ولو كان شعب المنطقة يتكلم الفارسية في العراق واليونانية في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين لأصبحت المنطقة بالتأكيد إسلامية كما هي ديانة أغلبية السكان الآن ولكن إسلامية يونانية أو فارسية مسلمة دون أن تكون عربية، كما هو الوضع في تركيا وايران وباكستان وغيرها، حيث جميع الدول هي دول تدين بالإسلامية ولكنها ليست عربية.

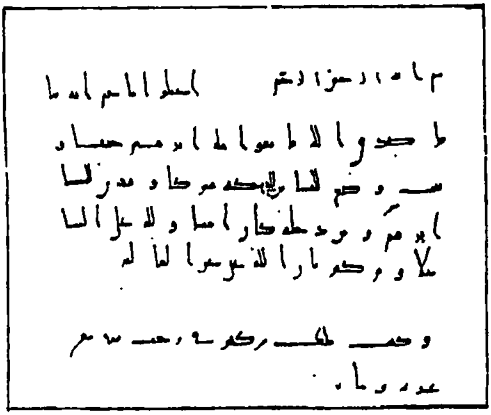

كتابة عربية لمالك بن كثير مؤرخة سنة ١١٧ هـ تمثل الخط الكوفي المتطور عن الآرامي.

لهذا بلاد الشام هي عربية كونها بالأساس سريانية عربية[1].

ومهما قلنا فإن السريانية دخلت كل الأدبيات الدينية والتراثية العربية باسمها المعلن أو من خلال كلماتها في النص العربي. وقد نقل عن مصادر المذهب الجعفري أن الإمام المهدي المنتظر عندما طلب منه أن يقرأ ما أنزل الله على أنبيائه ورسله فابتدأ بصحف شيث وإبراهيم قرأها بالسريانية[2] (في صحف إبراهيم إلى آدم بالسريانية مفسراً النبي والمحمود)[3] (اسمه-الإمام علي-في صحف شيث وإدريس ونوح وإبراهيم وبالسرياني مبين)[4]، أما النص التالي فيتضمن من ضمن ما يتضمن كلمتين على الأقل سريانيتي الأصل (دنا أمير المومنين من الصخرة وحرد ذراعه ومد يده إلى السماء وتكلم بكلمات مستقبل القبلة فسمعناه يقول كلاما من الإنجيل. طاب طاب الماء، والعلم طيبوثا والبوح أسمينا والحايوثا، وإذا يكونا ثم أهوى بيده المباركة اليمنى إلى الصخرة واقتلعها كالكرة)[5].

١ – من مقابلة مع مطران متى روم –صحيفة الديار–بيروت٢٧/٦/١٩٩٩.

٢ – الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان: الهداية الكبرى، الطبعة الأولى ١٩٨٦ (دون ذكر مكان واسم الناشر ص٣٥٦ مصدر سابق.

٣ – الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان: مصدر سابق ص٣٨.

٤ – الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان: مصدر سابق ص٩٢.

٥ – الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان: مصدر سابق ص١٤٩.

أما المغيرة بن سعيد من أتباع الباقر فقد استبق بعض أفكاره حوانب مميزة مـــن الفكـــر الإسماعيلي المبكر. واكتسب المغيرة بمرور الوقت أتباعاً له في الكوفة من بين كل مـــن العـــرب والموالي صاروا يعرفون باسم المغيرية. وتشهد المصادر فعلاً باستخدام المغيرية للأساليب النضالية، وهي أساليب من الصراع كانت أكثر ما امتازت به جماعة أبي منصور، وأصبحت بعد حـــوالي أربعة قرون تالية، ممارسة قائمة بذاتها على يد الإسماعيليين النزاريين في كل من فارس والشام.

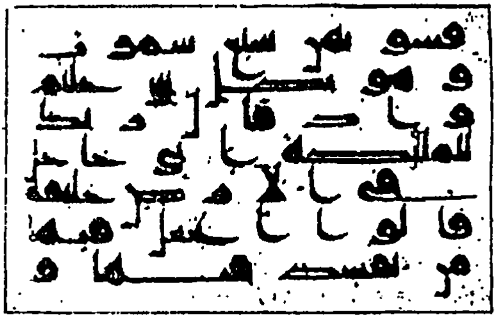

ورقة من مصحف كتب على الرق بخط كوفي من القرن الثالث للهجرة موجود في استانبول

ودعا أبو منصور، إلى إمامة الباقر أيضاً، وأسس، كالمغيرة، جماعته الخاصـــة به وهي المنصورية. ثم أخذ يحض، وكآمر يشكل جزءاً من سياسته في تلك الآونـــة على استخدام الاغتيال في التعامل مـــع الخصوم. وأكد أبو منصور بعـــد وفـــاة الباقر، أن الإمامة صارت إليه من قبـــل الباقر نفسه، وزعم أنه هو نفسه كـــان وصي الباقر، بيد أنه ادعى النبوة فيما بعد مصراً على أنه قد صعد إلى السماء حيث ربـــت الله على رأسه وخاطبه باللغة السريانية وكلفه تبليغ رسالة نبوية.(١)

وعلينا أن لا نغفل اسم مريم وماله من تقدير وإجلال في القرآن الكريم حيـــث هنـــاك (سورة مريم) وكم هي مقدسة لدى المسيحيين. (ومعلوم أن اسم العذراء مريم منتشـــر كـــل الانتشار عند النساء، ويستعمل له أحياناً التصغير مرّوم، ومرّومة (مرّومي) ويضاف عند البعض إلى أسماء أخرى على النسق الغربي فيصبح ماري روز، وماري كلير، وماري رين، وهلمجـــرا، وكثير من السيدات يُدعين سيدة، وروحينا، وملكة، وسلطانة، وما إليها، وهذه كلها تشير إلى العذراء القديسة كما لا يخفى. والرجال أنفسهم يسمون أحياناً باسم بشارة تيمناً ببشارة العذراء).(٢)

وتكرّم السيدة في سوريا تحت جميع الألقاب التي تعرف بها في البلاد المسيحية، وأهمـــها عند الكاثوليك سيدة المعونة وسيدة بومبي وسيدة النجاة وسيدة لورد.. إلخ وتكرم (الشـــلغورة) سيدة صيدنايا في الأوساط الأرثوذكسية، وسيدة بزمار في الطائفة الأرمنية، وسيدة الشـــرفة أو سيدة النجاة في الطائفة السريانية. وأشهر التساعيات انتشاراً اتساعية سيدة بومـــبي واســـتاعية سيدة المعونة الدائمة.

---

(١) دفتري، د. فرهاد: الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، ترجمة سيف الدين القصير، دار الينابيع – دمشق ١٩٩٤.

(٢) نصر الله، الأب يوسف: العبادة لمريم العذراء في سوريا، مجلة المسرة – حريصا السنة ١٩٤٨/٣٤ ت٢ص٥٢٨.

إن المزج الحضاري الذي تم في القرن السابع الميلادي بين الجزيرة العربية، وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام، هو مزج ثقافي من الدرجة الأولى، أدى إلى إنتاج ثقافة جديدة: عربية- إسلامية، وكان السريان أحد أركانها الأساسية، وعلى رأس ذلك اللغة التي هي أحد الأشكال التي تعبر عن الحياة، والحياة ثقافة.

www.al-maktabeh.com
مكتبة المهتدين

http://www.al-maktabeh.com

المراجع*

باللغة العربية

١-ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة ابن خلدون دار إحياء التراث العربي — بيروت الطبعة الثالثة

٢-أمين، احمد: فجر الإسلام دار الكتاب العربي — بيروت ١٩٧٥

٣- أمين، احمد: قصة الأدب في العالم القاهرة الجزء الثاني

٤-أبونا، الأب البير: أدب اللغة الآرامية مطبعة ستاركو — بيروت

٥-أبونا، الأب البير:تاريخ الكنيسة السريانية الشرقية ٣ أجزاء دار المشرق — بيروت ١٩٩٢

٦-أبونا، الأب البير: التعاون بين المسيحيين والمسلمين في العهد العباسي الأول عن: التقرير السنوي للجنة الخيرية لطائفة الكلدان بحلب لعام ١٩٩٧ دار الضاد للطباعة والنشر — حلب

٧-ابن عساكر: تاريخ دمشق ٥ أجزاء طبعة عبد القادر بدران بعنوان تهذيب دمشق دمشق ١٣٢٩هـ

٨- أوليري، دولاسي ايفانز: علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ترجمة وهيب كامل مكتبة الخانجي القاهرة١٩٦٢

٩- أثناسيو، الأب متري: حرجي حبرائيل بيطار دمشق ١٩٩٣

١٠-بولس، جواد: التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام دار عواد للطباعة والنشر — بيروت

١١- برصوم، البطريرك افرام: اللؤلؤ المنثور مطبعة الاديب — دمشق ١٩٨٧ الطبعة الخامسة

١٢- حسين، طه: مستقبل الثقافة في مصر دار المعارف — القاهرة ١٩٣٨ الجزء الثاني

* حرصاً على دقة البحث فإن أي إغفال في ذكر اسم المترجم أو اسم دار النشر أو سنة الطبع في مراجع الكتاب يتحمل مسؤوليته ناشرو هذه المطبوعات

١٣-حنفي، حسن: فكرنا المعاصر دار التنوير – بيروت ١٩٨٨
١٤-حتي ، د. فيليب : سورية والسوريون من نافذة التاريخ المطبعة التجارية السورية الاميركية – نيويورك ١٩٢٦
١٥ – حتي، د.فيليب :تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الأول ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق دار الثقافة – بيروت ١٩٨٢
١٦ -حتي، د. فيليب: تاريخ سورية ولبنان وفلسطين الجزء الثاني ترجمة د. كمال اليازجي دار لبثقافة – بيروت ١٩٨٣
١٧- حتي، د. فيليب: تاريخ العرب ترجمة د. ادوار جرجي، د. جبرائيل جبور دار غنـــدور – بيروت ١٩٧٤
١٨ – حشوة، ادوار: أثر المسيحية المشرقية في الحضارة العربية حمص ١٩٩٨
١٩ – جورافسكي، اليكسي: الإسلام والمسيحية ترجمة د. خلف الجراد سلسلة عالم المعرفـــة الكويتية رقم ٢١٥
٢٠ – خرما، د. نايف: اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة سلسلة المعرفة الكويتية رقم ٩
٢١ – دون ذكر المؤلف: التعايش الإسلامي – المسيحي كيف وعلى أي اساس المركز الوطـني للدراسات – بيروت ١٩٨١
٢٢- دفتري، د. فرهاد: الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ترجمة سيف الدين القصير دار الينابيع – دمشق ١٩٩٤
٢٣- زكريا، د.فؤاد: التفكير العلمي سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣
٢٤- زيدان، جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية م ٢ ج ٤ منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت طبعة ثانية ١٩٧٨
٢٥- زيدان، جرجي: العرب قبل الإسلام منشورات مكتبة الحياة – بيروت ١٩٧٨
٢٦- سوسة، د. أحمد: العرب واليهود في التاريخ العربي للطباعة والنشر – دمشق الطبعة السادسة
٢٧-سعاده، انطون: نشوء الأمم الآثار الكاملة رقم ٥ بدون ذكر اسم ومكان وسنة الطبع
٢٨- ساكا، المطران اسحق: السريان إيمان وحضارة الجزء الأول دراسات سريانية حلب ١٩٨٣
٢٩-ساكا، المطران اسحق: كنيستي السريانية مطابع ألف باء – دمشق ١٩٨٥
٣٠-شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي ترجمة خالد عيسى دار حسان – دمشق ١٩٨٢
٣١-شيلسر، ليندا: دمشق في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ترجمة عمر الملاح، دينا المـلاح مطبعة الجمهورية – دمشق ١٩٩٨

٣٢-شاخت وبوزورت (تصنيف): تراث الإسلام ترجمة د. محمد زهير السمهوري القسم الأول سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ١١٣
٣٣- صليبي، د. كمال: تاريخ لبنان الحديث دار النهار – بيروت ١٩٨٤ الطبعة الساسة
٣٤-صليبي، د. كمال: التوراة جاءت من جزيرة العرب ترجمة عفيف الرزاز مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت ١٩٨٥
٣٥- عبده، سمير: السريان قديما وحديثا المعهد الملكي للدراسات الدينية – عمان ١٩٩٧
٣٦-عبده، سمير: المسيحيون السوريون قديماً وحديثاً، دار علاء الدين ــ دمشق ٢٠٠٠.
٣٧-كرد علي، محمد: خطط الشام ستة اجزاء في ثلاثة مجلدات الطبعة الثالثة مكتبة النوري – دمشق ١٩٨٣
٣٨-كريب، ايان: النظرية الاجتماعية ترجمة د. محمد حسين غلوم سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٢٤٤
٣٩- نصر الله، الاسخركوس حوزف: منصور بن سرجون منشورات المكتبة البولسية – بيروت ١٩٩١
٤٠-مؤنس، د. حسين: الحضارة سلسلة عالم المعرفة – الكويتية رقم ١
٤١- يعقوب الثالث، البطريرك مار أغناطيوس: تاريخ الكنيسة السريانية الإنطاكية الجزء الأول – بيروت ١٩٥٣
٤٢- الابراشي، محمد عطية: لغة العرب وكيف ننهض بها طبع مصر ١٩٤٧
٤٣-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البخلاء دار الفكر – بيروت
٤٤- الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر: ثلاث رسائل طبعة J. FINKEL القاهرة ١٩٢٦
٤٥-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: رسائل الجاحظ تحقيق وشرح عبد السلام هارون مكتبة الخانجي القاهرة ١٩٧٩ الجزء الثالث
٤٦- الخصيبي، أبي عبد الله الحسين بن حمدان: الهداية الكبرى الطبعة الأولى ١٩٨٦
٤٧-الصليبي، نجيب داود: الحقائق الجلية في تاريخ العشيرة الصليبية بيروت ١٩٥٠
٤٨- العروي، د. عبدالله: أزمة المثقفين العرب، تقليدية ام تاريخانية ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ١٩٧٨
٤٩-العلبي، اكرم حسن: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ١٥٠٠ – ١٥٢٠ الشركة المتحدة للتوزيع – دمشق ١٩٨٢
٥٠-العودات، حسين: العرب النصارى دار الاهالي – دمشق ١٩٩٢
٥١-العوف، بشير: تعاليم الإسلام بين المعسرين والميسرين جزآن دار الفتح للطباعة والنشر – بيروت ١٩٩١

٥٢- القلقشندي: صبح الاعشى ١٤ جزء مطبوع في القاهرة بين ١٩١٣ – ١٩١٨
٥٣-المصرف، المهندس ناجي زين الدين: متطور الخط العربي مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد ١٩٦٨
٥٤-المخلصي، الخوري قسطنطين الباشا: بحث انتقادي في أصل الروم الملكيين ولغتهم المطبعة العمومية – القاهرة ١٩٠٠
٥٥-الواقدي، أبو عبد الله محمد: فتوح الشام دار الجيل – بيروت

مجلات وصحف

٥٦- مجلة الكتب.. وجهات نظر – القاهرة العدد ١١ السنة الأولى ١٩٩٩ ص٥٠ قاسم عبده قاسم
٥٧- مجلة النشرة- دمشق السنة الثامنة ١٩٩٩ من خطاب لبطريك السريان الأرثوذكس زكا الأول عيواص
٥٨- مجلة النشرة – عمان العدد ١٢ خريف ١٩٩٩
٥٩- المجلة البطريريكية – دمشق السنة ٣٤ كانون الثاني وشباط ١٩٩٦ المطران يوحنا إبراهيم
٦٠-مجلة المشرق – الموصل. السنة الثالثة المطران بولس بهنام
٦١-مجلة المشرق – بيروت السنة الثالثة
٦٢-مجلة المشرق – بيروت السنة ٦٧ الجزء الأول ١٩٩٣ الأب بولس دسيزيه
٦٣- مجلة المشرق – بيروت السنة ٧١ الجزء الثاني ١٩٩١ بشير العوف
٦٤- مجلة الجامعة السريانية – بونيس ابرس العدد الثالث ١٩٣٤ فريد نزهة
٦٥- مجلة المستقبل العربي – بيروت العدد ١٠٦ ١٢/ ١٩٨٧ د. احمد الحمو
٦٦-مجلة المستقبل العربي – بيروت العدد ٢٤٨ ١٠/١٩٩٩ د. عبد العزيز الدوري
٦٧- مجلة القدس – القدس العدد الأول السنة ١٢/١٩٩٧ الارشمنديت توما بيطار
٦٨-مجلة القدس – القدس العدد الثاني والثالث السنة ١٢/١٩٩٧ الارشمنديت توما بيطار
٦٩-مجلة ارام – ستوكهولم العدد الأول ١٩٩١ أسعد صوما أسعد
٧٠-مجلة ارام – ستوكهولم العدد السادس شتاء عام ١٩٩٣ د.اندريه كحالة
٧١-مجلة ارام –ستوكهولم العددان الثامن والتاسع شتاء ١٩٩٤ –وصيف ١٩٩٥ د. كابي ملكي
٧٢-مجلة ارام –ستوكهولم عدد ١٠ –١١ –١٢/١٩٩٦ د. عماد شمعون
٧٣-مجلة المسرة –حريصا أ- السنة ٣٢/١٩٤٦ تشرين الأول
٧٤-مجلة المسرة – حريصا ب- السنة ٣٢/١٩٤٦ تشرين الأول الأب سبيريدون الرياشي
٧٥-مجلة المسرة- حريصا السنة ٣٤/١٩٤٨ ك٢ الأب اغناطيوس فرح
٧٦-مجلة المسرة- حريصا السنة ٣٤/١٩٤٨ ت٢ الأب يوسف نصر الله

٧٧-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٥٨/٤٤ شباط حنا فاخوري- خليل المر
٧٨-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٦٧/٥٣ حزيران الأب اغناطيوس ديك
٧٩-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٧١/٥٧ كانون الثاني البطريرك مكسيمون الخامس حكيم
٨٠-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٧١/٥٧ نيسان
٨١-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٧١/٥٧ ايار
٨٢-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٨٠/٦٦ اذار – نيسان الأب الدكتور يوسف حجار
٨٣-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٨١/٦٧ ك٢- شباط الخوري اغناطيوس ديك
٨٤-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٨٧/٧٣ ك٢- شباط
٨٥-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٨٧/٧٣ ت٢- ك١ البطريرك مكسيموس الخامس حكيم
٨٦-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٨٨/٧٤ ايلول- ك١ الخوري بولس الفغالي
٨٧-مجلة المسرة- خريصا السنة ١٩٨٩/٧٥ اب- ك١ المطران يوسف ريّا
٨٨-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٩٠/٧٦ ك٢- حزيران الأب سمير خليل اليسوعي
٨٩-مجلة المسرة- حريصا السنة ١٩٩٠/٧٦ تموز – ك١ الاكسرخوس جوزف نصر الله
٩٠-صحيفة الشرق الاوسط – لندن العدد ٦٥٣٢ ١٦/١٠/١٩٩٦ احمد عثمان
٩١-صحيفة الشرق الاوسط – لندن العدد ٦٨٩٧ ١٦/١٠/١٩٩٧
٩٢-صحيفة الاهرام – القاهرة ١٩٩٧/٩/٧ شوقي عبد الحكيم
٩٣-صحيفة الديار – بيروت ١٩٩٨/٦/٢٨ المطران يوحنا إبراهيم
٩٤-صحيفة الديار – بيروت ١٩٩٩/٦/٢٧ من مقابلة مع المطران متى روهم
٩٥-صحيفة الديار – بيروت ١٩٩٩/٩/١٨ ابن الآراميين
٩٦-صحيفة الحياة – لندن ١٩٩٩/١٠/١ قاسم عبده قاسم
٩٧-صحيفة السفير – بيروت ١٩٩٨/١١/٢٠ العدد ٨١٥٥ انيس صايغ
٩٨-صحيفة هرا – اربيل، العراق العدد ١١٧ اواخر ايلول ١٩٩٩
٩٩-صحيفة البعث – دمشق العدد ١١٠٦٤ ١٩٩٩/١١/١٢ فاروق اسليم

باللغة الإنكليزية

100-Braude & Lewis: Christians and Jews in the ottoma empire, N. Y 1981
101-Gibb, H. A: Arab-Byzantine Relation under the umayyad Calliphate, Dumborton Daks Paper X11 (1959)
102- Grohmann, A: (the Arabs) Encyclopedia of Islam N. Y 1960 Vol 1.

www.al-maktabeh.com
مكتبة
المهتدين

الفهرس

مقدمة.. ٥

تمهيد.. ٩

الصلة بين المسيحيين والسريان والمسلمين........................ ١٥

بعث الإسلام.. ١٦

المسيحيون العرب.. ١٨

الفتح العربي لسوريا.. ٢٣

انتشار السريان.. ٢٦

من سوريا توحدت الأديان.. ٢٩

سوريا بين الهوية السريانية واليونانية........................ ٣٣

من هم مسيحيو سوريا.. ٣٦

اللغة التي جمعت المسيحيين والمسلمين........................ ٤٠

أبجدية الوحدة.. ٤٢

المسيحيون والحكم الأموي.. ٤٥

المسيحية وفتح دمشق.. ٤٦

الجزية.. ٤٩

موقف السريان من الأمويين.. ٥٢

المسيحية في العهد الأموي.. ٥٤

أثر الإسلام في عقلية العرب.. ٥٧

شكل العلاقات بين الجانبين........ ٥٨
المسيحيون والحكم العباسي........ ٦٣
من السريان إلى الإسلام........ ٦٤
العلماء المسيحيون وتعاضدهم مع العصر العباسي........ ٦٧
الأطباء المسيحيون في العهد العباسي........ ٦٩
سوريا الآرامية السريانية العربية........ ٧٣
سوريا........ ٧٦
العبور إلى الآرامية........ ٧٩
الآرامية........ ٨١
السريانية........ ٨٩
العربية........ ٩٧
السريانية العربية........ ١٠٠
المراجع........ ١٠٥
الفهرس........ ١١١